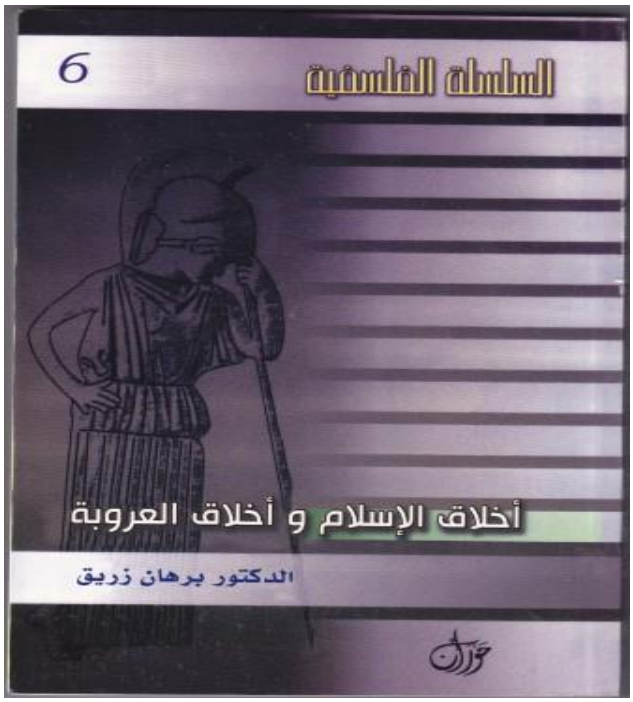

الأخلاق الإسلامية وأخلاق العروبة

" أخلاق المروءة " جناحا المشروع الحضاري العربي الإسلامي

مقدمة عامة للكتاب

لقد سبق لي أن صنفت كتاباً وسمته بعنوان المشروع الحضاري العمراني العربي الإسلامي شرحت وحفرت فيه عن عوامل التقدم والنمو لهذه الأمة المجيدة ، ولكنني شعرت – بدافع الوعي والرؤية والاستشراف – لأن أولي أهمية خاصة ومكاناً مرموقا للفاعل الروحي والأخلاقي في رفعة هذه الأمة وازدهارها مصداقا لقول الشاعر:

إنما الأمم الأخلاق ما بقيت فإذا هم ذهبت أخلاقهم ذهبوا

لقد تفحصت مليا ((الوعي بالتاريخ)) فلمست هذا البعد الكبير الذي تلعبه الأخلاق كمرقاة للأمة والحياة ، وهنا تذكرت قول المفكر العربي مالك بن نبي : لا يثب التاريخ و ينهض إلا بدخول عنصر الروح فيه ethos إلى منظومته القيمية واعتباره قيمة مركزية حتى

إذا سيطر العقل أخذت الأمة تراوح مكانها تمهيداً مرحلياً لاقتحام الغرائز والنزوات ، وآنئذ تأخذ الحياة بالانهيار وتكون الهاوية وما أدراك ما الهاوية [1].

لقد دخلت الروح تاريخنا مع النبي العربي محمد ﷺ ، ووضعت دعائم حضارتنا في الحقبة الممتدة بين غار حراء ومعركة حطين [2] ، ثم أخذ السلطان والصولجان يشتق من هذا النهر العظيم – الإسلام " قول الخليفة الأواه الأواب المنيب عمر بن عبد العزيز " جدولاً بعد جدول حتى كاد أن ييبس هذا النهر العظيم .

واختلط العرب المسلمون في بحران الشعوب يشربون قيمهم وعاداتهم ، متخلين في ذلك عن مروءتهم ورونق دينهم ، ولعب السلطان دوراً كبيراً في ذلك حيث أخذ المسلمون ينهلون من مرايا الملوك وآداب السلطان وأخلاق الطاعة عند الفرس واليونان ، ثم انهالت عليهم قيم الركاكة والزهد فاستسلموا للكثير من أخلاق التصوف (أخلاق الفناء) .

بيد أن القيم الإسلامية والقيم العربية (أخلاق المروءة) ما فتئت تثب وتشد عضد الأمة فتمتشق سيف الإسلام من غمد العروبة متمسكة بمعاقد العزة والكرامة والوجود .

وقد قامت المفكرة دوروتيا بإحصاء الثورات الشعبية التي هبت من صفوفنا في وجه السلطان فبلغت مئتين وثلاثين انتفاضة قامت بها الفتوة العربية الإسلامية إضافة إلى ما فعله الفتيان والشطار والعيارون والأخويات وغيرهم ، كل ذلك بقيادة الفقيه العضوي الموقع عن رب العالمين في وجه الموقعين عن السلاطين ، حسب تعبير ابن القيم في كتابه (إعلام الموقعين عن رب العالمين) .

لقد شكل هذا المركب الحضاري (المؤلف من أخلاق الإسلام وأخلاق المروءة) وجدان الأمة وضميرها ووعيها الجمعي وناموسها الاجتماعي وموسوعتها العلمية ونظرتها إلى الوجود وأريجها الروحي وزفيرها المقموع وأقاصيصها الشعبية ومعاقد عزها ورجائها وأملها.

---

[1] كتابه شروط النهضة : ترجمة عمر مسقاوي وعبد الصبور شاهين ، القاهرة ، دار الفكر 1969 ص 22

[2] المرجع السابق ، ص 68

ولا عجب أن نرى الالتفاف حول هذا الجسر الحضاري وتبلور هذا الالتفاف حول (علوم الملة) أو ما يسمى في النظرية العامة للثقافة بثقافة اللباب .

هكذا حاول وعينا في هذا الكتاب يجهد باحثاً عن الأصالة فوجدها في الأخلاق الإسلامية وتوأمتها أخلاق المروءة فهذان الجذران الأخلاقيان هما جناحا الطائر للتحليق بالأمة نحو الأمل المنشود .

ومن جهة أخرى فقد جهدنا للبحث عن (النوابت والذؤان) والدخيل لا سيما في الحقبة الراهنة (التغريب) ، ونحن لا ننكر وجود مفكرين تناولوا هذا الموضوع ، ولكن بطريق منهجية تختلف عن منهجيتنا ، حيث حرثوا الموضوع بطريقه استاتيكية ساكنة غلب عليها النزعة الفلسفية المجردة عن تعليل الواقع الاجتماعي العربي وسماته الخاصة ، فراحت تصنف المادة الخلقية وفقاً لتاريخ تدوينها بينما قمت بالترتيب وإيلاء الأهمية انهاضاً ديناميكياً حركياً حسب قرب الأخلاق من روحنا الحميمة ومن نظامنا العام ومحوريتنا الاعتبارية ، دراسة تستشرف وتستشف المستقبل من خلال جوهر الأمة وامتدادها الوجودي وكينونيتها الواقعية .

لكن ما قيمة هذه المواضيع المطروحة : الأخلاق الإسلامية – أخلاق المروءة ؟

تبدو أهمية هذه المواضيع بأننا نقوم بالتأسيس منذ الجذور لاسيما أن التأسيس بني على السياسة ، وكان من المفروض أن يبنى السياسي على الحضاري ، ومن جهة أخرى فلابد من الانتظام في تراث أمتنا ، وهو انتظام بحدوه المتجاوز لا الانكفاء هو وصل بعد القطع واستيعاب روح الثقافة وعوامل وعيها .

هكذا أسس الإسلام على الحنيفية وأسست نهضة أوروبا على الفكر اليوناني و الروماني و المسيحي[1] .

[1] د .محمد عابد الجابري : المسألة الثقافية ، مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت ، ط1 ، 1994 ص27

هذا هو موضوع الكتاب ومبتغاه ووجهته وبنيته ومناط أمره يحدونا في ذلك الأمل في انطلاق هذا الفاعل الحضاري الأخلاقي ورتوه وتفجيره .

إن قطرة الماء تتصاعد من البحر سابحة في السماء لتمطر الأرض العطشى حتى إذا قامت بواجبها الأخلاقي عادت إلى حضن أمها البحر مستقرها ومستودع أسرارها .

إن تنفصل القطرة عن بحرها ففي مداه منتهى أمرها .

هذا وسنقسم هذا الكتاب إلى فصلين نتكلم في الأول عن الأخلاق في الإسلام ثم نتكلم في الفصل الثاني عن الأخلاق العربية وعن أخلاق الطاعة والأخلاق اليونانية وأخيراً أخلاق الفناء (المتصوفة) ، أو فناء الأخلاق .

ونشير إلى أن السبب الذي دفعنا إلى هذا التصنيف والتقسيم هو أن الأخلاق الإسلامية والأخلاق العربية اندمجتا في مركب حضاري واحد ليكونا الضمير الجمعي للأمة ، أما بقية الأصناف الأخلاقية ، فقد بقيت من النوابت الدخيل البعيد عن الشعب الذي استطاع مع الأيام أن يتخلى عنها ، وإن كانت أخلاق السعادة أطلت علينا راهنياً في ثوب جديد " التغريب " وسلاح جديد وعقل جديد هو حضارة الغرب الأمضى عمقاً وسلاحاً وتأثيراً من الحضارة اليونانية ، وقد استطاعت أن تكتسح راهنياً مساحات واسعة من عقلنا ، والمؤمل من حضارتنا أن تستجمع قواها فتدرك ذاتها وقواها النابضة الحية وتشد شدة أضرى على هذا الغازي .

وإذا كانت أخلاق الفناء (التصوف) بالمعنى المنحرف لازال منشائياً من بعض الأوكار والأعطاف ، فإن أصالة وجلاء حضارتنا القائمة على مبدأ التوحيد قادرة على أن تتخلص من الذؤان والنوابت لتبنى على وحدانية الحي القيوم .

الفصل الأول

نظرية الأخلاق في القرآن

تمهيد

عندما نقول : "في القرآن " نقصد بداهة إدراج الحديث النبوي الشريف في هذا القول باعتباره قبساً من مشكاة القرآن وغصناً في دوحته ، وما يقال عن الأصل يقال بالضرورة المنطقية عن الفرع .

والاستهلال بالنظرية الخلقية في الإسلام – بادئ ذي بدء – أمر منطقي ، فهي لباب منظومة وجودنا والمقياس الذي تقاس عليه القيم الأخرى في فلسفة وجودنا .

هذا وسنحاول دراسة وتناول نظريتنا هذه – بصورة مجردة – على ضوء المعايير العلمية والنظريات والمبادئ والأفكار الكبرى لنظرية الأخلاق ، وفي الآن نفسه نفسح للقارئ أمر تقويم الأخلاق التي انتشرت في حضارتنا ومدى قربها أو بعدها عن الأخلاق القرآنية ، بل عن أخلاقية حضارتنا .

وسنقسم هذا الفصل إلى عدة أبحاث كما هو آت :

المبحث الأول : الإلزام .

وهذا البحث بدوره يقسم إلى الفروع الآتية .

الفرع الأول : الأساس الملزم لنظرية الأخلاق في الإسلام .

لابد من الإشارة بداءة إلى أن القاعدة الخلقية في الإسلام تنتظم أو لاً في النظرية العامة للقاعدة الخلقية ، والشيء الثاني هي أنها قاعدة ملزمة .

والإلزام أمر أساس في كل قاعدة ، وبالمقابل إذا خلت القاعدة من ذلك – كالقاعدة الجمالية مثلاً – خلت من المسؤولية ، وإذا خلت من المسؤولية ، افتقدت العدالة .

لكن ما هو مصدر الإلزام في القاعدة الخلقية ، أي من أين تستمد قوتها في التكليف ؟؟؟

لقد حدد الفيلسوف الفرنسي برغسون مصدرين للقوة الملزمة في الأخلاق هما قوة الضغط الاجتماعي ، ثم قوة أرحب هي العون الإلهي[1] .

وحقيقة الأمر فالضمير هو ملكوت الإنسان والعنصر الصميم النووي فيه ، فهو المجيش المستنهض لكافة قوى وفعاليات الأنا العقلية والنفسية والوجدانية والحسية ، وإننا – في الأخلاق – حيال قضية تسمى " المشكلة الخلقية " فحواها ، ما هو الأساس الذي نقوم عليه الأخلاق ؟؟ ... هل الحكم الأخلاقي يمدنا بلذة ومنفعة ، أو يسبب لنا انكماشاً واشمئزازاً ؟؟ ... هل يتفق مع ما تجري به العادة والعرف الاجتماعي ؟؟ وهل يستحسنه العقل أو يمقته ، والضمير يقبله أو يرفضه ؟؟ [2]

وقريب من نظرية برغسون يكشف لنا ماكيفر عن جاذبية الدار- الوطن ، لكنه يعترف بفاعلية العقيدة ، يقول : التعلق بالدار الاجتماعية شعور يشمل الدار وساكنيها ، لكن التعلق بالعقيدة يقف عند القيم الثقافية التي نؤمن بها والتي قد تخالف ما تؤمن به الدار . فالتعلق بالدار يعبر عن تحقق كيان الإنسان الاجتماعي ، ولكن التعلق بالمعتقد يتجاوز العلاقات الشخصية ليعبر عن علوية الإنسان وعلاقته مع الحياة والكون .

ذلك أن أساطير الشعب المعبرة عن روح الجماعة تظل في انطلاقتها وحريتها إلى أن يفسدها ظلم المستبدين أو حكم المترفين ،وهذه الأساطير وليدة التجارب مع قانون الحياة ، وحس الأرض والسماء ومع قيم الحب والرفعة ومع نداء الفنون ومع المسرات والأتراح ومع الشوق اللامتناهي لتحقيق الرغبات ومع الصراع مع تلك التجربة التي تستعصي على الفهم ، إنها تجربة الإيمان [3]

---

[1] Bregson : les deux sources de la morales et la relegion ch,1

[2] د. محمد عابد الجابري : العقل الأخلاقي العربي ، مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت ، ط1 ، 2001 ، ص101

[3] ماكيفر : تكوين الدولة ، ترجمة د حسن صعب ، بيروت ، دار العلم للملايين 1967 ، ص520

سنغادر الكلام على تلك النداءات : حس الأرض ، نداء الفنون ، قيم الحق وغيرها [1] ، وسنتكلم على التجربة التي تستعصي على الفهم ، إنها تجربة الإيمان ، وخصوصاً عن مرتسمها الأخلاقي في التجربة الإسلامية ....

ولابد أن نشير إلى الدور الكبير للوافد الفكري في حسم القاعدة الخلقية وجزعها ، يقول كانت : أيها الواجب ، أيها الاسم الأسمى العظيم ، أي مصدر خير منك ؟؟ ..وأين نجد جذر رسالتك النبيلة ؟؟ .... لعله لا يكون سوى ذلك الذي يرفع الإنسان فوق ذاته والذي يشده إلى نظام الأشياء ، لا يمكن لقوة أن تتصوره سوى قوة الإدراك [2].

هكذا تبدو أهمية نظام طبائع الأشياء والقوة المركوزة فيها ، لكننا نؤكد أن فوق هذه القوة قوة أخرى أعلى وأسمى هي قوة الإدراك [3]

ولهذا نقرر أن نظرة الفيلسوف (كانت) فيما لو جردت من الدقة الشكلية ومن نزعة التشاؤم تقترب من الرؤية الأخلاقية في القرآن ، لكن ألا يحق لنا أن نتساءل عن هذا العقل المحض : raison transcendantal أو العقل العلوي : raison transcendant حسب المفهوم الإسلامي ، حدوده ، نطاقه ، مضمونه ، ثم نقارن ذلك بعلوية العقل الإلهي ؟؟ لكن ماهي الحمولة الأخلاقية للرؤية الإسلامية ؟؟

الإنسان مزود في تكوينه الفكري الأول بالإحساس بالخير والشر .

قال تعالى : (وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ، فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا) الشمس 7و8

وقد هداه الله لمعرفة طريق الفضيلة والرذيلة .

(أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ ، وَلِسَاناً وَشَفَتَيْنِ) (البلد: 8و9)

والإنسان قادر على التحكم بأهوائه : (وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ

---

[1] كتابنا : الوطن في الإسلام ، دمشق ، دار الأنصار ، 1959، ص 320

[2] Kant : critique de la raison pratique 91

[3] د . دراز : دستور الأخلاق في القرآن ص 27

الْهَوَى فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى) (النازعات:40- 41)

والله سبحانه وتعالى يستنهض الإنسان مذكراً إياه بأن الله فضّله على الملائكة : (وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ) (البقرة:34)

والطبيعة البشرية ليست شريرة ، قال تعالى : (لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ) (التين:4)

والله يندد بأولئك الذين : (وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ) (لأعراف:179)

والمرجع في الأمر هو الاختيار الحر للحسن أو القبيح (قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا) (الشمس:9- 10)

والقرآن الكريم لا يقتصر على إيقاظ ملكاتنا العقلية فحسب بل يوقظ المشاعر الإنسانية : (يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ) (الحجرات:13)

وقوله تعالى : (يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ) (النساء: من الآية1)

ومافتئ القرآن يندد بالتباع الهوى : (فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ)(صّ: من الآية26)

ويستهجن الانقياد الأعمى : (وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ) (الزخرف:23)

لقد كشف القرآن عن أنبل المشاعر وأدق الأحاسيس في النفس الإنسانية ، وأعلن عن

نواميس الفطرة وقواعد العدل والأخلاق في الجوهر الاجتماعي ، ومع ذلك فقد أثير لدى علماء المسلمين سؤالاً هو هل ما هو حسن في عقولنا حسن عند الله ؟؟ هل القاعدة الدينية تتطابق مع القاعدة الخلقية الإنسانية ؟؟.

لقد اختلفت الإجابة بين مؤيد (المعتزلة والشيعة) ، وبين منكر (الأشاعرة).

فالأشاعرة يقولون : العقل يدرك الحسن والقبيح ، لكن الحكم على ذلك للشرع [1].

وقريب من ذلك قول الماوردي : قسم وجب بالعقل فوكده الشرع ، وقسم جادف العقل فأوجبه الشرع فكان العقل لهما عماداً [2]

والسؤال المهم هو كيف طرح الموضوع بهذه الصيغة ؟؟ ألم يكن الأجدى أن يقال إن العقل له مملكته الخاصة التي لها حدود لا يتخطاها ، وحجتنا في ذلك أن الإسلام ترك للعقل حريته ، ولم يضع عليه إلا قيداً سلبياً هو أن لايتيه في عالم الغيب .

قال رسول اللهﷺ : " أو ل ما خلق الله العقل فقال له : أقبل ، فأقبل ، ثم قال له أدبر فأدبر ، ثم قال له وعزتي وجلالي ما خلقت أكرم علي منك ، بك آخذ ، وبك أعطي وبك أثيب وبك أعاقب " [3].

وقوله ﷺ : " كرم الرجل دينه ومروءته عقله وحسبه خلقه " .

وقوله ﷺ : " لا يعجبكم إسلام امرئ حتى تعرفوا معقود عقله " [4]

وقوله ﷺ : " العقل نور في القلب تعرف به معنى الحق والباطل ".

وبالعقل عرف الحلال والحرام ، وعرفت شرائع الإسلام ، ومواقع الإصلاح وجعله الله نوراً في قلوب عباده ، ليهديهم إلى هدى ويبعدهم عن ردى [5].

---

[1] د. الجابري : العقل الأخلاقي العربي ص 126

[2] أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب الماوردي : أدب الدنيا والدين ، دار الكتب العلمية ، بيروت ،993 ،ص5

[3] د. كامل حمود : صورة الإنسان في الحديث : دار الفكر اللبناني ، بيروت ، ط2 ، 993 ص 22

[4] الغزالي : إحياء علوم الدين ، ج1 ص 42

[5] ابن أبي الدنيا : العقل وفضله ، تحقيق محمد الكوثراني .

وفي المركز العميق من العقل – مركز استقرار المعرفة العلمية ، يوجد اللب فهو مركز التذكرة قال تعالى : (فليتذكر أو لوا الألباب) ص /38

وهو الذي يدرك أن في القصاص حياة : (وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ) (البقرة:179)

هذه السلطة للعقل التي يحكم بها الأشياء هي سلطة عدم التناقض [1]، ومع هذا (فكانت) يعجز عن تحديد قوى العقل وهذا النظام يستتبع الرجوع إلى الفطرة الإنسانية أي إلى تسجيل ماضي الضمير الأخلاقي ، وليس إلى ذلك الكيان الشكلي المجرد.

إذن حيال اللاتحديد والحيرة للعقل الفعال (معتصم الفربيون) ليس أمامنا إلا أن نعتصم بذلك النور البديع الذي يهدي ضمائرنا ، قال تعالى : (أَلا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ) (الملك:14)

فمن هذا النور الفياض اقتبس نوري : (كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ) (البقرة:216)

فالعقل العلوي – عقل الله :transcendant raison - لا العقل المحض raison transcendate أو العقل اللزج (إذا صح التعبير) – هو النور الحي العليم الذي يتألف منه نوري ، قال الله تعالى : (نُورٌ عَلَى نُورٍ) (النور: من الآية35)

هكذا نصل إلى مصدر الإلزام الخلقي في الإسلام فهو مصدر إيجابي loi positive لا سلبي محض يحتاج نفسه إلى تحديد ، والقول بغير ذلك يبقينا في فراغ الدور .

لقد أجرى العالم فرانش سلسلة في الدراسات الإكلينيكية فاستنتج أن الذين يمتلكون عقائد واضحة تظهر تكيفاً وامتلاكاً للقليل من الكبت والميل إلى الإسقاط ، فالذات

[1] د. دراز : دستور الأخلاق في القرآن ص 33

لـديهم مكونـة تكوينـاً أكثـر ملاءمـة (ego) والحـب الإلهـي يـزكيهم في عمليـة القبـول الاجتماعي [1].

ويـرى بعـض علمـاء الـنفس أن الـدين يشـفي العقـل ويخلصـه مـن مشـاعر الـذنب ، وينمـي الشعور بالغفران والصبر والإيمان والأمل ويطرد مشاعر اليأس والشك .

يحدثنا جيرسيلد عن حياة المراهقين فيقول : إن الثقافة الدينية عندهم تلعب دوراً هاماً في تحديد مفهومهم عن أنفسهم وما ينبغي لهم أن يكونوا عليه [2].

فالدين يساعد على بناء علاقات اجتماعية ذات مغزى ، وله الأثر الفعال في تبرير مشاعر الذنب وإضفاء الطهارة والصفاء في النفس ، ويقرر عالم الاجتماع زركهايم أن الدين عامل هام في استقرار حياة الجماعة ، كما يؤكد ماكس وايبر أن الإصلاح البروتستانتي قد أسهم في نمو حركة الإصلاح الرأسمالي .

ويرى فلوجيل أن الصراع بين الذات الدنيا والذات العليا تتطاحن وتنخفض حدته بإسقاط الـذات العليـا علـى الله ، وإسـقاط الـذات الـدنيا علـى الشـيطان ، ونتيجـة لـذلك يستأصـل الصراع الداخلي ويبتر بتراً [3].

ويقـرر الشـيخ حسـن حبنكـي الميـداني : في كتابـه الأخـلاق الإسـلامية أن معظـم أحكـام الشريعة الإسلامية مرتبطة بالأخلاق .

فالعقائد المتصلة بوجود الخالق وصفاته والرسل والأنبياء وبالكتب الإلهية والإذعان للحقائق العلميـة والأحكـام التنفيذيـة لا تكـون إلا لله ، والأمـر نفسـه في أحكـام المعـاملات الماليـة

---

[1] د. محمد جلال شرف الدين ود.عبد الرحمن محمد عيسوي : سيكولوجيا الحياة الروحية في المسيحية والإسلام: منشأة المعارف بالإسكندرية ، 972 ص172

[2] المرجع السابق ص 193

[3] المرجع السابق ص 187

والعلاقات الاجتماعية والأموال وأحكام العقود وأحكام الآداب ، وكل هذه الأحكام متصلة بالأخلاق [1].

خصائص التكليف الأخلاقي

من خصائص القاعدة – أية قاعدة – أنها تطبق على أشخاصها بصفاتهم لا بذواتهم ، لافرق بين تطبيقاتها على النفس أم الغير ، قال تعالى : (أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلا تَعْقِلُونَ) (البقرة:44)

وقال تعالى : (وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ ، الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ،وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ) (المطففين:1-2-3)

وقال رسول الله ﷺ : إني لا أصافح النساء ، إنما قولي لمائة امرأة كقولي لامرأة واحدة .

وذهب الجمهور إلى أن الحكم الوارد بشأن فرد يطبق على كافة لناس ما دام القياس واضحاً بدرجة تقترن من التماثل .

والواجب الأخلاقي في القرآن لا يختلف في التحديد العلمي لجهة شموله وضرورته، فالإنفاق مثلاً محبوب أبداً في كل زمان وحال ، قال تعالى : (الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ) (آل عمران:134)

والشجاعة تتحدى كل صعوبة ، قال تعالى : (لا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلا نَصَبٌ وَلا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّه)(التوبة: من الآية120)

قاصدين بالعموم ليس العموم الحسابي ، إنما عموم الانطباق على من يتوفر به شروط القاعدة .

[1] دار القلم ، دمشق ، ط4 ، ج2 ص 28

فالعموم غير الشمول الذي هو تغلغل القاعدة الخلقية كافة النطاقات الإنسانية المختلفة الداخلية والخارجية ، إذ للفكر أخلاق وللقلب أخلاق وللسلوك الظاهر أخلاق [1].

و الأخلاق في الإسلام لا تقوم – كما قلنا- مطلقاً على الفكر ، أو كما قال (كانت) اللاأخلاقي يساوي اللامعقول : l,absord [2].

فالضرورة اللاأخلاقية حقيقة ساكنة : statque في حين أن الضرورة الأخلاقية حقيقة ذات طابع تركيبي متحرك : dynamique ، فهي لا تندمج في الواقع إلا بواسطة فاعل حر ومريد .

فالعمل الأخلاقي يقدم لنا نفسه على أنه في ذاته بغض النظر عن أية نتيجة مستحسنة أو مستهجنة ، إنه قانون حرية وعقل وقيمه ذاتيه ، ونشاطه ذو طابع زوجي في جوهره [3]

فالواجب الأخلاقي ينتمي إلى الواجب العام ، فهو شامل وضروري ، لكنه لا يخضع وينحني لحالاتنا الذاتية ومصالحنا الخاصة .

والقرآن يندد بهؤلاء الذين يخرجون على الواجب ، قال تعالى : (وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ مُعْرِضُونَ) (النور:48)

وقوله تعالى : (إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ) (النور:51)

ومع أن القانون الأخلاقي في القرآن ضروري وشامل ، لكن لا يمكن وصفه بأنه غير مشروط حسب التوضيح الآتي :

---

[1] الشيخ عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني : المرجع السابق ص 55

[2] Kant : fondement de le mytaphysisque des moeus , p 142

[3] د . دراز : دستور الأخلاق في القرآن ص 63

المطلب الأول : امكان العمل :

القاعدة الأخلاقية قاعدة تقويمية لا تقريرية ، ولكن جرعة التقويم أشد وأكمل مما هو عليه في القاعدة القانونية ، إذ القاعدة الخلقية حرة ومريده وقيمية .

ومع ذلك لا نستطيع أن ندلل باطلاقية القاعدة الأخلاقية أو تجريدها كلياً عن الزمان والمكان ، وإلا طالبنا الناقة بالطيران ، والمكان أن يتحول إلى نقطة والزمان إلى برهة ، قال تعالى : (لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَهَا)(البقرة: من الآية286)

فلا تكليف إلا للإرادة ولا حساب على الوساوس والغرائز والشهوات ، وعلى قدر الهبة الربانية تكون درجة التكليف والمسؤولية ، وما لا قدرة للإنسان عليه – حتى ولو كان من حركات النفس – هو خارج عن دائرة المسؤولية كالخواطر ، وكالهم النفس ، وكالحب الذي لا يملك دفعه ، لكن لا ترتفع المسؤولية في تكليف عام في حدود الاستطاعة لدى مختلف الناس كالزكاة والجهاد [1]

ولهذا عندما نزلت الآية : (وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَو تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ) (البقرة: من الآية284) تململ المسلمون ، وقالوا نكلف بما لا نطيق ، فنزلت الآية السابقة [2]

هذه القوة للقاعدة الخلقية المستمدة من جوانح الإنسان ، ومن أضواء نفسه وضميره دفعت القانون – تحقيقاً لفعاليته – أن يمد برزخاً ومصفاة تعبر من خلالها إلى عالم القانون ، فيكسب أصالة وحيوية وفعالية [3].

---

[1] عبد الرحمن حبنكه : الأخلاق الإسلامية ص 134 و 135

[2] د. دراز : المرجع السابق ص 64

[3] جان وليام لايبار

ولقد حدث جدال شديد بين المعتزلة والأشاعرة حول ما إذا كان الله يكلف بالمستحيل ، وقد أجاب الأشاعرة بأن من الممكن لله تكليفنا ما ليس بوسعنا ، أما المعتزلة فيعتبرون أن ذلك مرتبط بنظام عقلي على ضوئه تكون الشرائع [1].

ما هو الحل القرآني ؟؟

يقول تعالى : (إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ)(المائدة: من الآية1)

فالأشاعرة بدلاً من أن يؤكدوا القدرة الإلهية الكاملة التي غاب تأكيدها عن المعتزلة ، قال تعالى : (قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعا)(المائدة: من الآية17) وبدلاً أن يجعلوها مقابل الحكمة التي حاول المعتزلة إبرازها نجدهم بدافع الحمية وقلة الحنكة يلغون الحنكة من أجل القدرة [2].

فالله تعالى حسب قول الأشاعرة لا يفعل شيئاً من أجل شيء ولا بشيء ، وإنما اقترن هذا بهذا لإرادته لكليهما ، وهو يفعل أحدهما مع صاحبه لابه ولا لأجله لأنه خالق كل شيء ومليكه[3].

ولكن أليس الأشاعرة مضطرين إلى أن يعترفوا بأن مجال الإرادة والوجود أكثر تعقيداً من مجال الإمكان والقدرة المطلقة ؟؟ لاشيء حينئذ سوف يحول دون أن يتفق مايبدعه الله أو ما يأمر به مع مقتضيات العدالة والخير ، ولو أنه لن يكون يهما بهما [4].

المطلب الثاني :

الأخلاق القرآنية لا تأبى التكليف بالمحال فحسب ، وإنما تتجافى مع التكليف الذي لا تقر العادة امكان تحمله .

يقول تعالى : (يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْر)(البقرة: من الآية185)

---

[1] د. دراز : المرجع السابق ص 66

[2] د. دراز : ص 69

[3] ابن تيميه : منهاج السنة النبوية 128/1

[4] د .دراز : ص 270

ويقول : (وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ)(الحج: من الآية78)

هذا الجدال والسجال الشاق بين المعتزلة والأشاعرة لم يستحوذ العقول هكذا حتى تحول إلى شقشقة لسان .

صحيح أن الحوار أداة تقدم ، لكن ضمن حدود ينتهي في صيغة للعمل وأجزى للتواصل والتفاعل والتراكم لافي دوامة الحلقة المفرغة " يقول وتقولون "

إن الله تعالى قادر ولا حدود لقدرته ، لكن في حدود عدالة الله ومنطق الحياة .

وإذا كان شرط الإمكان مستقلاً عن المكان والزمان ، فشرط اليسر هو خصوصية لأمة الإسلام ، قال تعالى : (رَبَّنَا وَلا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْراً كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا)(البقرة: من الآية286) [1].

ثم أن الإنسان إذا كل وتعب عمي قال رسول الله ﷺ : (النفوس إذا كلت عميت) .

ولكن ماذا لو تغيرت الظروف ؟؟ ....إن نظام أية شرعية يرتبط وجوداً وعدماً بنظام الوقائع، ومن هنا تكلم رجال القانون عن شرعية عادية وأخرى استثنائية .

وإذا كانت وطأة هذا الأمر محددة بالنسبة لنظام الأخلاق / القائم على الإيمان والقيمه والإرادة ،/ فإننا نجده جلياً في نظام القانون ، وهنا نتساءل ما درجة تجاوب الأخلاقية مع نظام الواقع لاسيما في القرآن الكريم ؟؟

في الواقع يجب أن نعدل الواجب وفق الظروف الجديدة ، فمثلاً ما النسبة العددية التي يجب بمقتضاها على أي شعب مسلم محتل أن يواجه عدوه ؟؟ .. أجابنا القرآن بأن النسبة واحد إلى عشرة ، قال تعالى : (إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفاً مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَفْقَهُونَ)(لأنفال: من الآية65)

[1] البقرة آخر آية

وقد يعتور المسلمين الفتور فالنسبة تصبح واحد ضد اثنين ، قال تعالى : (الْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفاً فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ) (الأنفال:66)

وقد ينقلب الأمر فيتحول إلى إعفاء كامل (لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ) (الفتح: من الآية17)

وقد يكون المخرج هو الإرجاء : (وَمَنْ كَانَ مَرِيضاً أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ) (البقرة: من الآية185) .

لكن ماذا لو كنا حيال خروج اصطناعي على المبدأ ؟؟

الإسلام لايسلم لهذا الواقع المنحدر ، بل يخرج الإنسان من هذا التردي شيئاً فشيئاً نجد ذلك من معالجة آفة الخمر ، والإصلاح في المنهج القرآن ي وئيد لكنه أكيد ، وهذا هو مغزى قول عائشة (رض) : (حتى إذا ثاب الناس للإسلام نزل الحلال والحرام ولو نزل أو ل شيء لا تشربوا الخمر قالوا لا ندع الخمر أبداً) [1]

قال عمر بن عبد العزيز لابنه : (لا تعجل يا بني إني أخاف أن أحمل الحق على الناس جملة فيلفظونه جملة ، ويكون في ذلك فتنة) [2]

المطلب الثالث

تحديد الواجبات وتدرجها

لايكفي بالخير الأخلاقي أن يكون ممكناً وسهلاً ، بل يجب أن يكون منطقياً وعلى درجة من الدقة والتحديد ، والقاعدة الخلقية يجب أن تكون تقنية للفيزياء والطيف الاجتماعي ، وإلا فهي مبتسرة غير مطابقة .

---

[1] صحيح البخاري : كتاب فضائل القرآن .

[2] الموافقات للشاطبي 93/2 وكان قول الابن : مالك لا تنفذ الأمور فو الله ما أبالي لو أن الأمر غلت إلى ربك في الحق .

فمن الناس من لا يطبق من القاعدة الخلقية إلا حدها الأدنى وقصة الأعرابي مع الرسول مشهورة بأن لا يؤدي إلا فروض الصلاة ، وبالمقابل هنالك أصحاب العزم الذين يبذلون الغالي والرخيص .

والسؤال المطروح هو : هل يترك لكل شخص أن يحدد كماله الخاص ؟؟ ... وهل إن نطاق الواجب الأخلاقي مثل هذا الضيق في نطاقه عند (كانت) .

لاشك أنه يجب أن يهيئ المرء نفسه لممارسة جميع القيم ، وهذا هو المفهوم القرآني للأخلاق ، وبذلك يقول رسول الله ﷺ : (إن لربك عليك حقاً ولنفسك عليك حقاً ولأهلك عليك حقاً) .

فالواجب فرع من فروع الحياة لا ينبغي أن يشكل سوى امتداد معين من الخير الممكن في هذا الفرع تاركاً المجال للفروع الأخرى كي تشبع ذاتها ، وتحرز نصيبها ، أي أن عملنا يجب أن يكون متسقاً متكاملاً مع الإشارة إلى أنه من الصعب تحديد الخير الإلزامي حتى بأسلوب عقلي ساكن فيه قدر كبير من التقدير discreation والمرونة .

ولكن المرونة العقلية لا تعني أن الأخلاق محض عمل فردي بل هي قانون موضوعي عام فيه قدر من التجانس والجامع المشترك ، ولكنه توحد فيه ما يفيد التنوع لأنه إذا كان في التوحيد قوة ففي التنوع قوة أخرى تضاف إلى قوة التوحيد .

هذه هي الأخلاق القرآنية تبدأ بالحث على عطاء أكثر : (وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ) (البقرة: من الآية184) .

وقوله تعالى : (وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّداً وَقِيَاماً) (الفرقان:64)

وهي ردع للظلم في إطار الرحمة والغفران والإسماح قال تعالى : (وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ) (الشورى:43)

فإمهال المدين واجب (وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ) (البقرة:280)

والقرآن يتدرج في نظام القيم ، فمقابل القيمة الإيجابية هناك القيمة السلبية ، وبين القيمة ونقيضها توجد اللاقيمة (المباح) ، كما أنه بين الواجب الرئيسي والتكاليف الأخرى نجد في سلم المحرم الكبائر ، ثم تأتي السيئات الأخرى من الفواحش واللمم .

كذلك نلحظ في الأعمال المباحة المسموح به ثم المتغاضى عنه .

ومع أننا نجد في هذا السلم الدقة العجيبة nuance والتدرج الشامل ، فقد وجدنا من يهاجم الفكر الإسلامي ويدلل بأنه مولع بالفصل ، يقول جوتييه : إن وضع الشيء إزاء نقيضه هو الصفة التي تتلخص فيها جميع الأشياء عند العربي وخاصة المسلم بما في ذلك الدين والتاريخ[1].

إن جوهر الإسلام هو التوحيد في كل شيء ولكن هذا التوحيد لا يعني توحيد الله والأديان فحسب ، وإنما توحيد قوى الكون ضمن منظومة واحدة منسقة .

والخلاصة ، فالإيمان الصادق ثمرة من ثمرات عدة فضائل ، فقد يكون الدافع هو الصبر وحب الحق وعلو الهمة وقوة الإرادة وتبعاً لاختلاف وجود الحق يكون الخير الأخلاقي في الإسلام ، وتكون نسبته إلزاماً أو ترغيباً بالفعل أو الترك ، فقد تتعارض مقتضيات الفعل والترك ويكون لبعضها رجحان على بعض وتبعاً لذلك تكون نسبة الحكم الأخلاقي [2].

الفرع الثالث

تناقضات الإلزام

من الصعوبات التي يواجهها علم الأخلاق ، هي هل ينحاز إلى الموضوعية والثبات والشمول أو يستجيب إلى الواقع والتنوع والتغير .

إذا أخذنا بالغرض الأول فسوف ترتد الإنسانية إلى انموذج وحيد متماثل يختصر فيه المكان في نقطة والزمان في برهة ، وسوف تتوقف حركة الكون عن غنى الحياة وثمارها .

---

[1] Goethier: etude de la philosophie musulomon p.37

[2] حبنكة الميداني : المرجع السابق ص 61و62

ومن جهة أخرى إذا أخذنا في الاعتبار أن العمل المفرد يستعصي على الاندماج ، وهو خاضع لتأثير الزمان واختلاف المكان فلن يكون هنالك مجال للحديث عن قاعدة عامة .

ولعل هذه المسألة أولى الصعوبات التي يواجهها الواجب الأخلاقي ، وهي النوسان بين التوحد والتفرد .

ما الحل أمام هاتين الفرضين المتعارضين وكيف ساهم الفلاسفة في حلها ومقاربتها ؟؟ .

المطلب الأول

موقف كانت

يرى المذكور أننا نشق الطريق باتجاه الواجب الأخلاقي la deotologotique كلما ابتعدنا عن الواقعي المادي الحسي باتجاه التعميم والشكل والتجريد وباختصار (الواجب الأخلاقي كل سلوك يمكن أن يصاغ في قاعدة عامة دون أن يكون عرضة لنقض العقل)

Toute action dont la la maxime peut sans absurdite etre universite

فالقاعدة الخلقية لا تورد الأعمال بنتائجها ، لكن بصلوحها للتطبيق على كل الحالات:

((كل ما تريدون أن يفعل الناس بكم افعلوا هكذا أنتم أيضاً)) [1]

شمولية القانون وتبادليته هي الأساس ، يقول تعالى : (وَلا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ وَلَسْتُمْ بِآخِذِيهِ إِلَّا أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ) (البقرة: من الآية267) .

وقوله ﷺ : (لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه) [2]

يقول كانت : أسلك بحيث يمكن للقاعدة التي تقبلها إرادتك تصلح مبدأ يتخذ أساساً لتشريع عام [3]

لكن أول ما يتبادر إلى الذهن هو ما إذا كان صحيحاً أن الشرط اللازم الكافي للتحول باتجاه الواجب الخلقي هو أن تكون القاعدة عامة وشاملة .

---

1 انجيل متى الاصحاح السابع 12

2 البخاري : كتاب الإيمان الباب 6

3 Kant : crit de la raison prat p 130

نعم هنالك قواعد خلقية تتسم بالعموم ، لكن هنالك قواعد لا يمكن أن ترتفع إلى درجة العمومية ، ومع ذلك لا تنسب إلى اللاأخلاقية ، ومن ثم فليس التعميم وحده هو الذي يخلع سمة الأخلاقية .

وإذا قلنا إن الامتداد هو جوهر القاعدة الخلقية ، فما هي درجة هذا الامتداد ألا يختلف الأمر حسب واجبنا تجاه العمل أو الزوجة ، وغير ذلك .

فالتعميم يكسب القاعدة الخلقية الحيوية والفعالية لا الوجود إذ الضرورة في النظام الأخلاقي والمنطقي هي التي تكسبه وصف العمومية ، والمرجع الأخير هو القيمة الداخلية لا الشكلية الخارجية ، وكل واجب خلقي له امتداده النسبي الذي يتحدد تبعاً لتكوينه أو تضييق وتحديد الواجبات يجب أن يكون وفقاً لأنواعها على ضوء معطيات العلم ، ولا يمكن تحويل قواعد السلوك إلى مبادئ هندسية مشتقة من مبدأ أعلى واحد .

المطلب الثاني

موقف الفيلسوف رو

هنالك مفكرون يجدون الأخلاق في نظام الأشياء والحرية التجريبية للذات ، وفي إرادة الحياة ، وأبرز ممثلي هذا الاتجاه نيتشه الذي يرى أن كل فرد مبدع لأحكامه ومبادئه ، والأفكار المجردة لا تستطيع أن تحكم واقعاً مادياً ، ورجل الأخلاق لا يستطيع أن يغفل فاعل الزمان والمكان ، والسلوك لا يشترط فيه أن يكون منطقياً ، بل قابلاً للتحقق العملي [1].

والحقيقة إذا كان (رو) قد اكتشف الضعف في نظرية كانت ، فرؤيته لم تخل من الضعف إذ كيف نتصور كل برهة بذاتها ولها قانونها الخاص ، ولا مجال للبحث عن هذا القانون المشترك الذي يضم اللحظات والأنواع إلى بعضها .

[1] د .دراز : المرجع السابق ص 118

الفرع الرابع

تقويم وتقدير

في الواقع لا يوجد في النفس الإنسانية جوهر خالد ثابت لا يختلف الأمر فيه قبل جيل بيرينه أم بعده ، وفي الوقت نفسه هنالك جوانب في الإنسان عرضية متقلبة تختلف بين يوم وآخر ، قال رسول الله ﷺ : (ما من يوم ينطلق فجره إلا وينادي ، يا ابن آدم أنا خلق جديد ، وعلى عملك شهيد فاغتنم مني فإني لا أعود إلى يوم القيامة) [1].

ولعل خير من أدرك هذه الحقيقة الكبرى – و هو خير المدركين – القرآن الكريم وحسبنا تقدير حقيقي له بأنه كتاب الحركة ، وكل شيء في الوجود متغير إلا وجهه [2]، وعلم الفقه هو علم الخلافيات .

هذا القانون الثابت – وسمي القانون الطبيعي – أعلى من القوانين الوضعية لأنه واحد مشترك بين الناس جميعاً (شسيشرون) .

ولقد عرف هذا القانون لدى اليونان ، وتكلم عنه الرومان واعتنقه رجال الكنيسة في القرون الوسطى ، كما تكلم عنه جرسيوس في بداية عصر النهضة ، ثم امتد إلى فلاسفة العقد الاجتماعي وسمي حديثاً القانون الطبيعي ذي المضمون المتغير [3].

ولعلنا نجد صدى هذا القانون عند قدماء الفراعنة فقد سموه (ماعت) بمعنى ناموس ، ولقد استعمل السيد المسيح كلمة الناموس قال : لا أظن أني جئت لأنقض الناموس [4].

ومن الفكر الإسلامي نلحظ الشريعة بمعنى المنهج والوسيلة مقابل استعمال الدين بمعنى الواحد [5].

---

[1] مالك بن نبي : شروط النهضة ص 211

[2] د . حسن صعب : تحديث العقل العربي ، بيروت ، دار العلم للملايين ، 969 ، ط1 ص 85 وما بعدها .

[3] د.حسن كبره : المدخل إلى القانون ، بيروت ، دار النهضة ، 967

[4] المستشار محمد سعيد العشماوي : أصول الشريعة ، القاهرة ، سينا للنشر ، 991 ص 39

[5] المرجع السابق ص 31

لقد احتشدت المذاهب الفكرية حول هاتين الحقيقتين ، فمنهم من يغلب الواقع والعكس ومنهم من ذهب بين بين ، والحقيقة والواقع ليس المفهوم المنطقي المجرد بقادر على أن يستغرق الواقع المحسوس ، ومع ذلك يبقى المحسوس مجرد شتات وشظايا منعزلة ما لم يتمثلها العقل ويجري عليها قوانينه في التماسك والبناء .

ومن جهة أخرى ، إذا لم تكن لدينا مآلات عقلية ، فالطبيعة تتمرد على كل سيطرة عليها ، والصحيح هو التطابق بين الحقيقتين : الفكرة والصيرورة ، الشكل والمادة ، وهذا التطابق هو الذي يحرك عجلة الحياة ، وبه تصعد شرارة التقدم متفجرة متدفقة .

ونعتقد بيقين ، أن هذه هي الرؤية القرآنية ، فالله تعالى يقول : (فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُم) (التغابن: من الآية16) .

فليست هذه الصيغة هي الصيغة التي تقيد حركتنا وتشل روحنا ، والضمير القرآني ليس ضميراً فارغاً على ما عليه إنسان الطبيعة عند روسو ، وليس ذاتاً كالذات الخالصية : moi transcendental عند كانت ، بل هو ضمير يجمع الشرطين ، فهو أو لاً مستنير ، ويستند إلى واقع حي فياض جياش ، فالله تعالى يقول لي : افعل إلا المحرم ولا تفعل هذا إلا إذا كنت مكرهاً بضرورة : قال تعالى : (فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ) (المائدة : من الآية3)

هذه السعة في تصرفات الإنسان تذكرنا بتلك المناظرة التي دارت بين ابن عقيل وأحد فقهاء الشافعية ، قال ابن عقيل : " السياسة : ما كان من الأفعال بحيث يكون الناس أقرب إلى الصلاح وأبعد عن الفساد ، وإن لم يشرعه الرسول ولا نزل به وحي ، فإن أردت بقولك إلا ما وافق الشرع فغلط وتغليط [1].

[1] د.محمد عمارة : التراث في ضوء العقل ، بيروت ، دار الوحدة ، ط1 ، 980 ص242

فالإنسان يجب أن يبذل جهده بإخلاص ، وما اخترته ولو كان منحرفاً فلست آثماً مادمت قد بذلت جهدي ، قال تعالى : (وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ وَلَكِنْ مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً) (الأحزاب: من الآية5)

وقال ﷺ: استفت قلبك واستفت نفسك ، الخير ما اطمأنت إليه النفس ، واطمأن إليه القلب ، والإثم ما حاك في النفس ، وتردد في الصدر وإن افتاك الناس وافتوك .[1]

ونحن لا نقول كما قال برغسون : الأخلاق نوعان : نوع إلزامي وآخر إبداعي ، ولا كما قال غوته : النظرية دائماً رمادية وشجرة الحياة دائماً خضراء ، فالأخلاقية الإسلامية ليست خضوعاً محضاً ولا ابتكاراً مطلقاً ، بل النور الإسلامي نور من نور ، نور الله يحرك نوري ، فحريتي ليست شواشاً مضطرباً بل حرية مقيدة self-arbitre ووعيي مسكون بالميثاق ، وهذا الوضع ينطق بالحق ضمن منظور مطلق الحق ، وليس ضمن منظور الأشياء الدنيوية العارضة [2].

المبحث الثاني

المسؤولية الخلقية

مقدمة

فكرة الإلزام تقودنا بالتداعي المنطقي إلى فكرة المسؤولية ، كما أن هذه الفكرة الأخيرة ، تنقلنا إلى فكرة ثالثة هي فكرة الجزاء المترتب على الموجبات الأخلاقية ، بحيث إن هذا الثالوث – إلزام – مسؤولية – جزاء– تأخذ عناصره بحجز بعضها البعض تكاملاً وتعاضداً واتساقاً ، فما هي هذه المسؤولية :

[1] مسند احمد – مسلم : كتاب البر باب 7

[2] د. محمد أرغون : الإسلام ، الأخلاق ، السياسة ، بيروت ، مركز الإنماء القومي ، 99 ط ؟؟ ص28

الفرع الأول

ماهية المسؤولية الخلقية

المسؤولية الخلقية قبل كل شيء استعداد فطري مركوز في قوام الإنسان و آدميته ، وبهذا المعنى فهي القدرة على أن يلزم الإنسان نفسه ، وبالتالي فالمسؤولية الخلقية لن تكون سوى سمة من السمات التي يأخذها الإنسان من جوهره [1] يستشفها في إطار الإمكان والضرورة ((جناحا الأخلاق)) ، وهذا ما يتضح من قوله تعالى : (إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها و حملها الإنسان إنه ظلوما جهولا)[2] (باعتباره انتهكها)

وإذا ما حللنا هذه المسؤولية وجدنا أن اللحظة الأولى فيها هي الإحساس بقدرتنا وقوتنا ، أما اللحظة الثانية فهي خفض الجناح بالواجب .

وخفض الجناح هذا قد يكون دينياً أو اجتماعياً أو أخلاقياً ، وقد عبرت الآية القرآنية عن ذلك بقولها : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ)[3].

فالله كثيراً ما يقدم المسؤولية الدينية في صورة مسؤولية أخلاقية ، قال تعالى : (عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ) (البقرة: من الآية187)

والمجتمعات الراقية تسعى إلى الارتقاء بالقاعدة القانونية إلى مستوى القاعدة الأخلاقية ، فتجعل المواطن يقبل القانون ويعانقه سراً و علانية ، ويقدم على تطبيقه برضا واطمئنان[4].

والمسؤولية الدينية اتحاد بين إرادة الله و إرادة الإنسان (الحرية المسددة) ، نور الإنسان ونور الله ، فالمحسن الذي يوافق على أمر لا يستطيع أن يسحب موافقته ، والأمر نفسه بالنسبة للتقي الذي يشهد على أداء نافلة ، وهذا مغزى قوله تعالى : (وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْؤُولاً) (الاسراء: من الآية34)

---

[1] د. دراذ ص 137

[2] الأحزاب : 72

[3] الأنفال : 27

[4] جان لابيار : السلطة السياسية ، المرجع السابق ص22

و قوله ﷺ: " آية المنافق ثلاث ، إذا حدث كذب وإذا وعد أخلف ، وإذا أؤتمن خان" [1].

لكن هذا التقرير الفردي للمسؤولية ، ليس دون قيود ، قال رسول الله ﷺ : " من نذر أن يطيع الله فليطعه ومن نذر أن يعص الله فلا يعصيه " [2].

وعلى حين يحظر قانون نابليون – وهو ما نجده في القانون الجزائي الوضعي في سوريا وكثير من الدول العربية – الابن أن يشهد ضد والده ، نجد القرآن الكريم يقول: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ) (النساء: من الآية135) [3] .

والطاعة الأولى للأمر في حدود المشروعية : (وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ) (النساء: من الآية59)

والوفاء بالعقود واجبة : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ ..) (المائدة: من الآية1)

والصلح جائز بين المسلمين إلا صلحاً حرم حلالاً وأحل حراماً[4] .

ولا تناقض بين المواطن الصالح والإنسان الصالح ، قال رسول الله ﷺ : لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق [5].

فلا تناقض أو انقسام في الوعي الإسلامي " فالله واحد والدين واحد والحياة واحدة يهيمن على كل ذلك الله " ، وهنالك وحدة متماسكة متكاملة في وجود سائر أجزاء الكون من حيث هو صادر عن الإرادة المكلفة المباشرة ، وهذه الوحدة لا تفرض التناسق والتعاون بين أجزاء الكون المادية فحسب ، وإنما بين أفراد الإنسان والله ، بحيث يصبح الأصل في الوجود الاجتماعي هو التعاون والتكامل بين الجميع ، والقول إن الإسلام هو دين التوحيد لا يعني

---

[1] صحيح البخاري : كتاب الإيمان ، باب :24

[2] البخاري كعتاب النذور ، باب 27

[3] صحيح البخاري :كتاب الأحكام : باب 3

[4] ابن ماجه : كتاب الأحكام: باب 23

[5] مسند أحمد 66/5 عن عمران بن حصين

توحيد الله وتوحيد الأديان في دين الله فحسب ، وإنما يعني أيضا الوحدة بين القوى الكونية جميعاً ، والوحدة بين العبادة والمعاملة ، وبين العقيدة والسلوك ، وبين الروحانيات والماديات ، وبين القيم الاقتصادية والمعنوية [1].

وفي ضوء ذلك ترفض تمايز المصلحة العامة عن المصلحة الخاصة ، بل هناك مصلحة عليا هي تارة لصالح الفرد وأخرى لصالح الجماعة ، ونحن حيال وسائل وأساليب (وليس تغليب) تتجه أحيانا نحو الزيادة : en plus وأخرى نحو النقصان لصالح الفرد أو الجماعة كما تعززه المصلحة العليا. " فاقتضاء الأمر أن تكون أحيانا لصالح الفرد وأخرى لصالح المجموع في عملية مواءمة وموازنة والتقاء وتعاون الفرد مع الجماعة ، الحاكم والمحكوم ، المصلحة العامة والمصلحة الفردية " [2].

والمسؤولية القرآنية بعيدة الأغوار كثيرة الامتداد والشمول : (فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ) (الحجر:92) والمسؤولية الخلقية حتمية : (وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَاباً يَلْقَاهُ مَنْشُوراً) (الاسراء:13)

والحساب لن يكون عن الأعمال الظاهرة فحسب : (وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَو تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)(البقرة: من الآية284)

وقال تعالى: (وَلا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً) (الاسراء:36)

وكل فرد مسؤول عن سير الأمور التي وكلت إليه ، قال ﷺ : كلكم راع وكلكم مسؤول عن

[1] سيد قطب : العدالة الاجتماعية في الإسلام ، مكتبة مصر و مطبعتها ،ط2 ص28

[2] عيد الحميد بن باريس ، انظر د. فهمي جدعان : أسس التقدم عند مفكري الإسلام ،بيروت ، المؤسسة العربية للدراسات و النشر ص347

رعيته ، الإمام راع ومسؤول عن رعيته والرجل راع في أهله ومسؤول عن رعيته ، والمرأة راعية ومسؤولة عن رعيتها والخادم راع في مال سيده ومسؤول عن رعيته[1].

لكن ماهي شروط المسؤولية الخلقية و الدينية ؟؟

الفرع الثاني

شروط المسؤولية الأخلاقية والدينية في القرآن

هنالك عدة شروط نبرزها فيما يلي :

المطلب الأول :شخصية المسؤولية :

وهذا أمر بدهي ، يقول تعالى : (لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ...)(البقرة: من الآية286) .

هكذا تزول الخطيئة الأصلية (خطيئة آدم) وانسحابها على الناس جميعاً ، وهذه الخطيئة لم تكن نتيجة خبث في طبيعة آدم ، وسوء في جوهره ، فقد اعتقد بسذاجته أنه عندما يأكل الفاكهة يصبح نقياً كالملائكة ، قال تعالى : (وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ) (لأعراف:21)

وقال تعالى : (مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ) (لأعراف: من الآية20)

إذن كان يكفي أن يظهر ندمه ، وتعود له سريرته النقية ، قال تعالى : (ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى) (طه:122)

فالإنسان ينشأ على الفطرة بريئاً غير مسربل بالخطيئة ، قال تعالى : (لَقَدْ خَلَقْنَا الْأِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ) (التين:4)

[1] صحيح البخاري : كتاب الوصية باب 9

والمجتمع هو الذي يفسد الفرد ، قال رسول الله ﷺ : ينشأ الإنسان على الفطرة، فإذا أبواه يهودانه أو يمجسانه .

و القرآن لا يأخذ البريء بجريرة المذنب : (قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِنْدَهُ إِنَّا إِذاً لَظَالِمُونَ) (يوسف:79)

وهنالك حالتان فقط خرجتا على مبدأ المسؤولية الشخصية ، قال تعالى : (وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالاً مَعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيُسْأَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ) (العنكبوت:13) وقال تعالى : (وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ)(الطور: من الآية21)

نحن حيال المتكبرين الذين سعوا في إضلال الآخرين فهم يتحملون المسؤولية عن أعمال الذين أضلوهم : (لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلا سَاءَ مَا يَزِرُونَ) (النحل:25) .

فالرعاة يسعون في معصية القطيع فهنا يتحملون مسؤولية ناتجة عن العلاقة السببية قال تعالى: (لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ)(الشورى: من الآية15)

وقال رسول الله ﷺ : من سن في الإسلام سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها من بعده[1].

و قوله ﷺ : ليس من نفس تقتل ظلما إلا كان على ابن آدم الأول كفلٌ من دمها [2].

و قوله تعالى : (مَنْ قَتَلَ نَفْساً بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعاً وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعاً ...)(المائدة: من الآية32)

وأبعد من ذلك فنحن مسؤولون عن مسلك أقراننا السيء ، والعمل السلبي حرام بنفس درجة العمل الإيجابي ، قال تعالى : (لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرائيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ

[1] مختصر صحيح مسلم للحافظ المنذري /حديث 532 /

[2] رواه ابن مسعود ((البخاري كتاب الاعتصام))

وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ *كَانُوا لا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ) (المائدة:78-79)

وبالعكس فأولئك الذين يقومون بأدنى جهد سوف ينجون : (أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ) (لأعراف: من الآية165)

و هكذا يتجلى امتداد المسؤولية الفردية امتداداً قد يصل إلى مشارف مسؤولية الجماعة دون أن يختلط به ، وأعمالنا الطيبة تنعكس آثارها علينا قال رسول الله ﷺ : إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث ، صدقة جارية أو علم ينتفع به أو ولد صالح يدعو له[1] .

ولكن ماذا عن الشفاعة وهل لها تأثيرها على المبدأ الأساسي ، المسؤولية الفردية ؟؟

المقرر أن الشفاعة بيد الله : (مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ)(البقرة: من الآية255)

و الرسول ﷺ قد يطلب تبرئة بعض أصحابه فيقال له ، " إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك" فيقول : " سحقاً سحقاً) [2].

المطلب الثاني : العلم بالقاعدة :

وهو أمر منطقي على صعيد القاعدة القانونية والخلقية ، وهذا ما أرسته الآية القرآنية : (وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً) (الاسراء: من الآية15) .

وهذا الرأي يتفق كلياً مع رأي المعتزلة وجزئياً مع رأي الماتريدية ، وعلى العكس موقف أهل السنة الذين يشترطون الذيوع المادي الملموس في القاعدة

قال تعالى : (وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولاً) (القصص: من الآية59)

لكن أليست نزعة المعتزلة مثالية ، وهل إن نور الفطرة موجود لدى الكافة ، ألا يوجد بعضهم يرسف في الجهل ، وقد ران على قلبه طبقة سميكة من الرواسب الاجتماعية التي حجبت نور

[1] صحيح مسلم كتاب الوصية باب 3

[2] البخاري كتابه الفتن باب 1

الفطرة ، قال تعالى : (رُسُلاً مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزاً حَكِيماً) (النساء:165)

ويمكن الرد على هؤلاء بأن هنالك نواميس عامة اكتشفها واستبان مضمونها الإنسان منذ أعرق الدهور والنقيض من ذلك فالله تعالى يرى : من الظلم تعذيب القرى ، وهي سادرة غافلة إلا بعد إنذار : (وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنْذِرُونَ) (الشعراء:208)

وهنا يبدو جلياً أن الغفلة الطارئة (سواءً أكانت نقص انتباه أو استعصاء عادات) تعلن عدم مسؤولية أناس أبرياء فمن باب أولى أن يكون ذلك على الضمائر التي ما زالت محجوبة كلية بحوادث طبيعية ، وهذا ما نفهمه من قوله ﷺ : رفع القلم عن ثلاثة : عن النائم حتى يستيقظ وعن المبتلى (المجنون) حتى يبرأ وعن الصبي حتى يكبر (يحتلم)[1] .

والنظرية التربوية الإسلامية تتجه في بعض الحالات إلى الأطفال بغية إعدادهم على تحمل المسؤولية ، من ذلك حال الدخول إلى البيوت . قال تعالى : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنْكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنْكُم) (النور: من الآية58)

والإسلام يحثنا على إعدادهم للقيام بواجباتهم الدينية ، قال رسول الله ﷺ : مروا الصبي بالصلاة إذا بلغ سبع سنين ، وإذا بلغ عشر سنين فاضربوه عليها[2].

وعلينا أن نربي الأطفال ألا يستعملوا أشياء الغير أو يعتدوا عليها ، فقد قال رسول الله ﷺ لحفيده –و قد بلغه أنه أكل ثمرة من ثمرات الجامع – كخ كخ إرم بها ألا تعلم بأننا آل محمد لا تحل لنا صدقة [3].

والقاعدة الأخلاقية – خلافاً للقانونية – يجب أن تنقل إلى الشخص ذاته ، قال تعالى : (وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ) (الأنعام: من الآية19)

---

[1] أبو داوود : كتاب الحدود ، باب 7

[2] أبو داوود

[3] البخاري كتاب الزكاة ،باب 6

لكن لنفترض أنني نسيت ذلك ، فما هو الحل ؟؟

عندما يكون النسيان ظاهرة طبيعية لا تصدر عن الإرادة و لا تتعلق بخطأ ، فالقرآن الكريم يقول: (رَبَّنَا لا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا) (البقرة: من الآية286)

المطلب الثالث

الإرادة

تكلمنا عن علاقة العمل الأخلاقي بالشريعة ، وسنتكلم الآن عن علاقته بالعمل ، فالأولى علاقة معرفة ، والثانية نتاج إرادة .

والعمل اللاإرادي مجرد فعل مادي يستبعد أخلاقياً عن منطقة المسؤولية ، أما العمل الأخلاقي فلا يمكن إلا أن يعبر عن كلية الإنسان ، أي عن ضميره باعتباره صميم الإنسان وكليته ، ولهذا لا يمكن إلا أن تتوفر الإرادة في الأخلاق ، بعكس الحال في القانون ، باعتبار الإرادة تعبيراً عن الذات .

لا شك أن القانون يطمح للصلاح ، ولكن هذا شرط كمال لا انعقاد ، وكما قيل القانون قانون ولو كان ظالماً ، أما العمل الأخلاقي فلا يمكن أن يكون غير إرادي .

قال تعالى : (وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ وَلَكِنْ مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً) (الأحزاب: من الآية5)

ولكن إذا كانت هكذا النية ، فهل تساوي الأخلاقية ، وعندئذ يصدق قول كانت ، الشيء الوحيد الذي هو خير في ذاته هو الإرادة الطيبة [1].

هل صحيح ما قاله ديكارت بأن الإرادة و الحرية شيء واحد ؟.... و هل يجب أن نضيف إلى شروط المسؤولية شرطاً تتحدد في إطاره قدرتنا وفاعلية جهدنا ؟؟

[1] د.دراز : المرجع السابق ص178

في الواقع ليس هنالك مجال للحديث عن إرادة إنسانية بالمعنى الكامل ، وهو ما عبر عنه شوبنهدر بقوله : مثلما توجد هنالك حملان ونمور ، يوجد أناس طيبون وآخرون خبثاء.

وعلم الأخلاق يصف أخلاق الناس ، مثلما يفعل القانون الطبيعي بوصف خصائص الحيوانات.

ويذهب سبينوزا إلى أن الأعمال الإنسانية تستنبط وتنتج بنفس الضرورة المنطقية التي يستنتج بها أن زوايا المثلث تساوي قائمتين [1].

إذن هل نبحث القضية من زاوية الحتمية ... نعم هاهو (كانت) بطل الحرية يعلن نوعاً من الحتمية الإنسانية ، إذ لو كنا نعرف جميع الظروف لتمكنا من التنبؤ بها بالدقة نفسها التي يحدد بها كسوف الشمس .

و الأمر نفسه بالنسبة لهيوم زعيم المذهب الفوضوي فعنده أن شعورنا بالحرية ليس إلا وهماً.

ومن جهة أخرى ، فمؤيدو الحرية ينادون بمرادفة الحرية للإرادة ، وإن كان لنا أن نتساءل : هل يستطيع الإنسان أن يريد رغم العقبات المادية الصارمة للطبيعة .

وفي الوقت نفسه نتساءل كيف نحن مسؤولون عن فطرة ليست نتاج إرادتنا .

ويبدو أن علم النفس أثبت أن الغرائز أقل صرامة وأكثر قابلية للتربية ، والإنسان استطاع أن يؤثر على الطبيعة غير المستأنسة للحيوان ، فكيف لا يفعل ذلك على غرائزه ؟؟

هذه القدرة المزدوجة للإنسان نجدها في قوله تعالى : (وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ، فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ، قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ، وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا) (الشمس7-10)

صحيح أن بعض عناصر نشاطنا غير قابلة للتطور ، لكن هذا الجزء غير خاضع للتكليف الأخلاقي ،كأن يكون الإنسان عاطفياً أو متشائماً ، وبالتالي يجب أن نفرق بين مطالب ميولنا الفطرية التي لا تقاوم وبين علاقتها بإرادتنا .

[1] د.دراز: المرجع السابق ص181

لقد أثارت هذه المسألة ثلاثة تيارات في الفكر الإسلامي ، فأهل السنة ومعهم القليل من المعتزلة يرون أنه كي يمكن اختيار أحد النقيضين يجب أن تتوفر في الإنسان بعض الشروط الخاصة ، وأن تكون له علة تقتضيه اقتضاء تاماً يجعل من المستحيل أن يختار النقيض[1].

والخوارزمي والزمخشري اكتفيا ببعض الأسباب المرجحة بدلاً من اشتراط ضرورة علة موجبة ، وأكثر المعتزلة يرون أن الاختيار الإرادي لا يتطلب سوى ذاته [2].

ونعتقد عدم صحة رأي المعتزلة لا لأنها أدنى درجات الحرية – على ما قاله ديكارت– بل لأن اللامبالاة هي إرادة ناقصة .

وهذا الاعتبار للإرادة الإنسانية لا يعني قدرتها على أن تمارس ذاتها دون دوافع أو غاية ، وعلى أن تقطع صلتها بجميع قوى الطبيعة ، بل لا يجوز اتخاذ هذا الاستغلال ذريعة لقطع منابع هذه القوى ، وإسكات الأصوات التي تحفز الإرادة .

فأنا لا أصل دائماً إلى الأشياء بفعل الضرورة المنطقية أو التجريبية ، وليس صحيحاً ما قاله سقراط وأفلاطون بأن العلم بالخير يحتم فعله ، لأنه من الممكن فعل الشر بسبب الجهل والضعف [3]، بل إن ستيوارت ميل يصف لنا حدث الإرادة بأنه محتوم بواسطة الحالات السابقة على طريقة كرة البلياردالتي تتحرك عندما تتلقى الصدمة من الكرة الأخرى .

لكن إذا كان الحدث اللاإرادي نتيجة طبيعية لما قبله ، فهذا يعني إمكان تلافيه ، وهذا محال ، قال تعالى : (وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَدا)(لقمان: من الآية34)

---

[1] ابن تيمية : منهاج السنة ، ج1 ص110

[2] المرجع السابق ص 111/1

[3] د.دراز: المرجع السابق ص188

هذا الإدراك الميكانيكي للحالات النفسية يتعارض مع نظرية برغسون في الحرية ، فأفعال الضمير ليست منفصلة ، بل متداخلة ممتزجة ومن الصعب إخضاعها لمبدأ السببية الذي يفترض حدين متميزين السبب والنتيجة [1] .

يقول برغسن : إن التزامنا بالمجتمع واتصالنا به يجعل حالات ضميرنا في معظمها متفاوتة على سطح ذاتنا (الوعي الآلي) ، أما إذا انتزعناها من المجتمع فسوف تكون أعمالنا الحرة هي المرتبطة بالذات والحرية في النهاية هي ثمرة طبعنا.

وعلى كل فمهما تكن هذه القوة واحدة أو متعددة عميقة أو سطحية فإن الميكانيكية والديناميكية تتفقان في الرجوع إلى طبيعة يستحيل أن نغير اتجاهها أو توقف حريتها ، لكن إذا كانت إرادتنا تنبثق من طبعنا قدراً مقدوراً ، فهذا يعني أننا نظل في حلقة مفرغة بحيث لا يمكن لأحد أن يكون سوى ذاته .

إن (الحرية شرط المسؤولية)يجب أن تسيطر على الطبيعة و لا تخضع لسيطرتها فهي ، كما قال سبينوزا – طبيعة فاعلة لا منفعلة : une nature naturanate et non paz une nature naturee

وحاشا أن نقلل من أهمية نوازعنا العميقة وعواطفنا القوية في صوغ أحكامنا ، فقد يقترح علينا ذهننا حلاً معيناً في حين أن إحساسنا يستحثنا إلى آخر ، وربما كان يكمن في الغضون الخفية لضميرنا سبب يوجهنا إلى حل ثالث ، ولكن هذه القوى لا تستطيع تفسير عمل الإرادة الحاسم ، فهي سبب كافٍ ، ولكنها ليست السبب الكامل ، ويتمثل عملها في كونها نوعاً من الدفع والتحريض ، أكثر من كونها نوعاً من التسبيب فكأن دورها يقتصر إلى إعداد السجل أو الدفاع عن القضية .

وقد يبلغ وزن تأثيرها أن تميل بنا إلى هذا الحل أو ذاك ، ولكن هذا التأثير لا يكون حلقة محكمة وعلينا أن نصلح ذلك أما عن طريق تقويته أو تضعيفه ، وتبقى هذه العوامل موضوع

[1] د.دراز:ص189

الإرادة وعملها في عالم الممكن ومن أجل تحقق ممكن واحد من بين ممكنات عديدة يلزمنا عامل جديد هو تدخل ذاتنا الكلية بنشاطها التركيبي على حسم الموقف .

وإن ذاتنا غير المنقسمة هي التي تحكم نهائياً على هذا الهدف أو ذاك ومثلنا في ذلك مثل سائق القطار الذي يوقفه عند اللزوم ، وإن أكثر الناس فسقاً لديه القدرة على التوقف أو الاستمرار .

يقول ليبتنز : أليس قانوناً شاملاً أن كل قوة تعمل حيث تجد مزيداً من اليسر وقليلاً من المقاومة ، فلماذا نستثني القوة الأخلاقية ؟!.

وقد تضطرني الظروف إلى الاستيقاظ و بمجرد ذلك يسقط كل وهم عن إرادتنا ، نعم إنه مع القليل من التوتر وشيء من الحماس ينهض أكثر الناس نعاساً ، وقد عبر الرسولﷺ عن ذلك بقوله : يعقد الشيطان على قافية رأس أحدكم إذا هو نام ثلاث عقد وتضرب كل عقدة عليك ليل طويل فارقد ، فإن استيقظ فذكر الله انحلت عقدة فإن توضأ انحلت عقدة فأصبح نشيطاً طيب النفس ، و إلا أصبح خبيث النفس كسلان [1].

وقد أثبتت التجارب أن أكثر الإرادات اعتدالاً تثبت في غمار عملها وأمام التحدي بأنها قادرة على أن تقاوم مقاومة عنيفة تأثير الغرائز راضية التضحية بأغلى ما تملك .

وإذا كان الشر آت لا محالة فلماذا نستقبله وتسارع إليه ؟؟؟

ما موقف القرآن الكريم من كل ذلك ؟

1- غيبية أفعالنا المستقبلية : (وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَداً) (لقمان: من الآية34)

2- قدرة الإنسان على السيطرة على حياته الداخلية : (قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ، وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا) (الشمس: 9- 10)

[1] صحيح البخاري وعن أبو هريرة

3- عجز جميع المتغيرات بأن تمارس إكراها على قراراتنا ، يقول تعالى على لسان الشيطان (وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ) (ابراهيم: من الآية22)

4- شجب أعمال الهوى والتقليد الأعمى ، قال تعالى : (وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ) (لأعراف: من الآية176)

ويقول تعالى : (إِنَّهُمْ أَلْفَوْا آبَاءَهُمْ ضَالِّينَ ، فَهُمْ عَلَى آثَارِهِمْ يُهْرَعُونَ) (الصافات:69-70)

ولكن ما أكثر الصادات والعقبات أمام الإنسان ، قال تعالى : (مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ) (النحل: من الآية106)

وقوله تعالى : (فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ) (المائدة: من الآية3)

ويقول: (وَلا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّناً) (النور: من الآية33)

يستثنى من ذلك القتل والسرقة وهتك العرض ، فهذه جرائم لا تقبل العفو. ولكن لنتساءل لماذا هذا التسليم بالإكراه المادي دون الإكراه النفسي ، وهل نحن أكثر سيطرة على حالات نفسنا من سيطرتنا على قدرتها المادية ؟؟ أو ليس العكس أكثر احتمالاً ؟؟ ألا يتطلب تقويم الطبع والسيطرة على الهوى جهداً لدى الغالبية أكبر مما يتطلبه تحمل الجوع والألم ؟؟

يتضح من جماع ما سبق أن الإرادة الإنسانية في القرآن الكريم تبدو مستقلة عن نظام الفطرة وعن الطبيعة الخارجية ، ولكن المسألة التي تطرح نفسها هي هل إن هذا الاستقلال مطلقاً حتى في مواجهة الخالق .

لقد ظهرت الاتجاهات الآتية :

القدرية : بالمعنى غير المتطرف prodestinationsme التي لا تلغي إرادة الإنسان وفي الوقت نفسه تؤمن بسبق العلم الإلهي

وقريب من ذلك المعتزلة الذين يرون أن الله تعالى يعلم كيف يستخدم الإنسان ملكاته وقدراته ، ومع ذلك يتركه يتصرف على مسؤوليته ، وهو ما اعترضت عليه جماعة الجهم بن صفوان قائلة : إن الإنسان كريشة بيد الله ، وقد اعتمدوا على عدة آيات منها قوله تعالى : (اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ) (الزمر:62)

بيد أن المعتزلة تمسكوا بالآيات التي تؤكد أن الله عادل بحق وأنه (إِنَّ اللَّهَ لا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ) (النساء: من الآية40) .

ولقد حاول أهل السنة التوفيق فقالوا بمبدأ الخلق المنسوب إلى الله أما الإنسان فينفتح للعقل الإلهي حتى يتلقى منه العمل .

لن نتوسع في هذه المسألة ، لكننا نرى أن بعض الآيات تقر بأن إرادتنا تشبه تماماً قلبنا ، فهي أدوات في يد الله قال تعالى : (وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ) (التكوير:29) و قوله تعالى : (وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ) (الأنفال: من الآية24)

والقرآن لا يني يقدم لنا التسوية بين طرفي هذه القضية قال تعالى : (إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِم) (الرعد: من الآية11)

فنحن الذين بادرنا فابتدأنا بالانفتاح على النور أو التحول عنه : (وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَاناً فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ) (الزخرف:36)

وقوله تعالى : (كلا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ) (المطففين:14)

ولو أننا فهمنا جيداً موقف القرآن من مسألة الاختيار الحر لوجدناه مناقضاً لموقف "كانت"

على خط مستقيم ، إذ القرآن يضع مقابل حتمية كانت من نظام الظواهر استقلال إرادتنا الكامل بالنسبة إلى أحداث الطبيعة .

ولئن كان الشر الأخلاقي لا يتفق مع إرادة الله التشريعية فما كان له أن يقف في وجه إرادته الخارقة ، فيجب على الأقل ألا يصادف عمل إرادتنا عائقاً فوق الطبيعة ، ويجب لأن يحصل من السماء على نوع من الإجازة ، وهذا ما يتضح من الآية الكريمة : (وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ) (الأنعام : من الآية112)

إن الله تعالى فضلاً عن هذه المساعدة السلبية لعدم الاعتراض قد أحاط قدرتنا على الاختيار بجهاز قوي ومعقّد تتفرع عنه قراراتنا ، فهنالك العقل والحواس والنزعات والجاذبية الحسية والقيم الروحية والضمير والوحي ، لكن ألا توجد إضافة إلى ذلك مساعدة من الله لبعض العباد ؟

المعتزلة : ومعهم الشيعة يرون أن هذا الامتياز يتنافى مع العدالة الإلهية ، في حين أن أهل السنة يرون عكس ذلك .

والواقع أنه لكي نصون عدالة السماء يجب أن نقرر حداً أدنى من القدرة الإنسانية الضرورية والكافية لأداء واجبنا ، وأن يكون هذا الحد شاملاً موزعاً على سواء .

لكن لماذا نقف ضد البداهة باسم المبدأ العام وندّعي أن الخالق قد خلق كل الناس في الظروف المناسبة نفسها كي يريدوا الخير ويقصدوا إلى الحق [1].

لا داعي لأن نذكر تنوع الصفات الوراثية وأثرها على قراراتنا قال رسول الله ﷺ: " الناس معادن كمعادن الذهب والفضة " [2].

والله تعالى يصنف الناس في طائفتين : الضالين والمعتدين ، ولكن كلا الفريقين مدين لمشيئة الله : (بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ) (الحجرات: من الآية17)

[1] د.دراز : المرجع السابق ، ص 214

[2] البخاري : كتاب بدء الخلق باب 25

والله تعالى يتدخل بطريقة ايجابية في اللحظات الحاسمة (فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ) (يوسف:34)

والله تعالى يقويّ العزيمة قال تعالى : (وَلَوْلا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئاً قَلِيلاً) (الاسراء:74)

وفي هذه اللحظات الصعبة يضيء الله النور في أعينهم : (وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلا أَنْ رَأى بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ) (يوسف:24)

والله يمكّن القلب ويرصّنه : (فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ) (الفتح: من الآية26)

والله ييسّر للمتقين : (فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى ، وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى ، فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى ، مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى ، فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى) الليل

الفرع الثالث

الجانب الاجتماعي في المسؤولية

طبقاً لأوامر التوراة ، فالثور القاتل يرجم ولا يؤكل لحمه [1].

يقول أفلاطون – في كتابه القوانين : إن الحيوان القاتل للإنسان يقتل ويرمى خارج الحدود. وبقيت الدعاوى ضد الحيوان القاتل في أوربا حتى القرن الثامن عشر ، وقد أعدم طفل في الثامنة من عمره في انكلترا ، كما أن الأحكام كانت تصدر بحق الحيوان [2].

ما هو موقف الإسلام من ذلك ؟؟

قال ﷺ : يرفع القلم عن ثلاثة : عن النائم حتى يستيقظ ، وعن المجنون حتى يبرأ ، وعن الصبي حتى يكبر [1]. وقال ﷺ : العجماء جبار [2]

[1] Vocannat : la responsibilite , etat de sociologie p.50

[2] المرجع السابق ص 42

وتختلف المسؤولية الأخلاقية عن القانونية في الآتي :

إن المسؤولية الأخلاقية تركز على الحياة الداخلية في حين تركز المسؤولية القانونية على السلوك الظاهر .

قال رسول الله ﷺ : إنما أنا بشر وإنكم تختصمون إلي ، ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض ، فأقضي له بنحو ما أسمع ، فمن قضيت له بحق أخيه فلا يأخذه ، فإنما أقطع له قطعة من نار .

وفي مجال المسؤولية الدينية يفرق الإسلام بين الفعل الحسن والفعل القبيح ، فيضاعفه في الحال الأولى ، قال تعالى : (مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ) (الأنعام:160)

ماذا عن التوبة ؟؟ .. الرسول الكريم يقدر لحظة التوبة والاعتراف بالجرم (الزنا مثلاً) ، لكنه لم يتردد في إيقاع العقوبة .

أين هي حقوق الغير ، هل يضرب بها عرض الحائط ؟؟ ... كلا فالتوبة لها آثارها الدينية والأخلاقية لا القانونية ، قال تعالى : (وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِناً إِلَّا خَطَأً وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِناً خَطَأً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ) (النساء: من الآية92)

وبهذا المعنى قال رسول الله ﷺ : من طبب ولم يعلم منه قبل ذلك الطب فهو ضامن [3] ، والأمر نفسه بالنسبة للحيوان ، قال تعالى : (وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ) (الأنبياء:78) .

---

[1] سبق الإشارة إلى هذا الحديث

[2] البخاري : كتاب السائمة باب 4

[3] البداية لابن رشد : 154/2

المبحث الثالث

جزاء مخالفة القاعدة الخلقية والدينية في القرآن

الفرع الأول

مخالفة القاعدة الخلقية

الوجدان هو الحاكم الأخير الذي بيده القول الفصل ، فهو يتميز باستقلاله الذاتي لأن أحكامه ليست من الخارج ، بل من صميمنا [1].

والله تعالى وضع مؤيد الحدود ، وترك الأمر لعقوبة التعزير لتقدير القاضي .

وكلنا سمع محاولة أحدهم أن يشفع للسارق ، هنا ، انتفض الرسول وقال : لو أن فاطمة سرقت لقطعت يدها .

والعفو يكون قبل إبلاغ السلطة بالحدود ، قال الرسول ﷺ : تعافوا الحدود بينكم ، فما بلغني من حد وجب [2].

وكان يستهجن ذلك الرجل الذي يعترف بما فعلته يداه ، قال : بات يستره ربه يصبح يكشف ستر الله عنه [3] .

وتباطأ الرسول في العقاب عندما جاءه طالب إيقاع العقوبة به " قصة ماعز " ، لقد تاب توبة لو قسمت على أمة لوسعتها [4].

والقاضي – مستعملاً التخفيف في العقوبة التعزيرية – يخفف عن النبيل الذي ليس له سوابق قال رسول الله ﷺ : " اقيلوا من ذوي الهيئات (الصلاح) عثرات لهم إلا الحدود [5]

---

[1] د.عادل العوا : الأخلاق ، دمشق ، المطبعة الجديدة 977 -978 ص 46

[2] أبو داوود : ذكره السيوطي في الجامع .

[3] البخاري : كتاب الأدب ، باب ستر المؤمن على نفسه .

[4] صحيح مسلم : كتاب الحدود باب 51

[5] أبو داوود : ذكره السيوطي في الجامع الصغير .

والخروج على القاعدة الخلقية جزاؤه تبكيت الضمير ، قال رسول الله ﷺ : " إذا ساءتك سيئتك وسرتك حسنتك فأنت مؤمن [1].

وقوله ﷺ المؤمن يرى ذنبه فوقه كالجبل يخاف أن يقع عليه ، والمنافق يرى ذنبه كذباب على أنفه فأطاره [2].

وإذا علمنا أنه لا انقطاع في التيار النفسي أدركنا[3] مغزى أن الندم تمهيد للتوبة ، قال تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحاً) (التحريم: من الآية8)

ومن صفات التوبة أنها عاجلة لأن الإصرار على الذنب يولد ذنباً جديداً قال تعالى : (وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ) (آل عمران: من الآية135)

وليست التوبة أن يعمر الإنسان حياته بالشهوات ..

(وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ) (النساء: من الآية18)

والغفران لمن يتوب بسرعة : (إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً) (النساء:17)

وقال تعالى : (وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ) (آل عمران:135)

وإطار التوبة فسحة الحياة :قال رسول الله ﷺ : " إن الله عز وجل ليقبل توبة العبد ما لم يغرغر " [4]

---

[1] مسند الإمام أحمد من طريق أبي أمامه 251/5

[2] الترمذي : كتاب صفة القيامة ، باب 49

[3] د.دراز : المرجع السابق ص 251و252

[4] مسلم : كتاب التوبة :باب 5

والتوبة في الإسلام خلق جديد ،وموقف للإرادة أكثر جذرية ،لذلك يطلق القرآن على التوبة مفاهيم جديدة ،قال تعالى : (ثُمَّ اتَّقَوْا وَآمَنُوا ثُمَّ اتَّقَوْا وَأَحْسَنُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ)(المائدة: من الآية93)

ومحو آثار العمل السيء بالعمل الحسن ،قال تعالى : (إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ)(هود: من الآية114)

وهناك عملية مقاصة تجري بين حسنات الإنسان وسيئاته ، قال رسول الله ﷺ : " إن المفلس من أمتي يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة ، ويأتي وقد شتم هذا وقذف هذا وأكل مال هذا وسفك دم هذا وضرب هذا ، فيعطي هذا من حسناته وهذا من حسناته .

هذا ونلفت الانتباه إلى نقطة هي أننا استبعدنا سابقاً المقولة المدللة بأن الأخلاق الدينية تضرب الذكر صفحاً عن فاعلية الضمير ، وأنها تستمد كل قوة لها من إرادة علوية تفرض نفسها عن طريق الترغيب والترهيب [1] .

كما استبعدنا أيضاً الفكرة القائلة بأن الدين ينشأ من عطالة الوجدان وركاكة احالته إلى سلطة علوية ليتخلص من هذا الصراع ، ولقد أيدنا المقولة القائلة أن الدين الحق يؤمن بصفاء وصدق الضمير (نور) ، وهذا الضمير النور يحيل إلى نور آخر هو الله – نور على نور.

والحق أن القرآن الكريم يعلن أن النفس الإنسانية مستودع قانون أخلاقي فطري ، ورسول الله ﷺ يدعونا أن نستفتي القلوب ، وأكثر المذاهب محافظة تسلم للعقل بمجال خاص للتقدير ، لكن المشكلة التي واجهت فقهاء المسلمين هي : هل يجب أن يؤخذ أمر العقل نهائياً ؟؟ .. وهل يتفق دائماً مع واقع الأشياء ومع الفعل الإلهي ؟؟

هذا ونشير إلى أن بحث الجزاء في نظرية الأخلاق في الإسلام وعر وطويل جداً وسنكتفي ببحث المواضيع الآتية :

[1] Bouttenille : la morale de leglisse et la morale maturelle p.445

الفرع الثاني

مخالفة القاعدة الدينية (الجزاء الإلهي)

مقدمة: قلنا إن التوراة تؤمن بأن السعادة في هذه الحياة الدنيا في حين نرى الانجيل يركز على السعادة في الحياة الأخرى ، أما الإسلام فيقيم هذا التوازن والاتساق بين الدارين ، يقول رسول الله ﷺ : " اعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً " قال تعالى : (رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ) (البقرة: من الآية201)

إذن فالأخلاق القرآنية تعلن بأن الجزاء في الدارين مشيرين إلى أن الجزاء الإلهي يعتد بقاعدة دينية مؤيدها من السماء والعكس بالنسبة للقاعدة الخلقية الإنسانية التي تؤيدها ذات الإنسان وصميمه ، مشيرين إلى أن القاعدتين تتميزان ولكن لا تنفصلان ، وقد أشرنا سابقاً إلى أن القاعدة الدينية الإسلامية هي ملح الحياة ووجدانها وناموسها الرفيع ونكاد لا نرى واقعة إنسانية إلا ونظمها الإسلام أخلاقياً ودينياً .

فما هي مظاهر هذا الجزاء ؟؟

المطلب الأول

الجزاء الإلهي في العاجلة

هذا الجزاء في معظمه ذو طابع أخلاقي عقلي روحي ، بل ويكاد أن يكون الجانب المادي محدوداً ، كما يتضح لنا من عناصر هذا الجزاء .

البند الأول

الجزاء المادي

ويتجلى هذا العنصر في قوله تعالى : (وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً ، وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ) (الطلاق: من الآية2و3)

وقوله تعالى : (وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْراً) (الطلاق: من الآية4)

وقوله تعالى : (وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاغَماً كَثِيراً وَسَعَةً) (النساء: من الآية100)

وقوله تعالى : (لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ) (النحل: من الآية41)

ونقص الإيمان هو مصير البلاء ، قال تعالى : (وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَداً مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ) (النحل:112)

وقد يكون مرد ذلك فرط الثقة بالنفس : (وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَداً) (الكهف:35)

وقد يكون السبب تفشي الكبائر : (ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ) (الروم:41)

وقد يكون الظلم هو السبب : (وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ) (هود:102)

وينجي الله البعض : (إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ) (الصافات:80) (نِعْمَةً مِنْ عِنْدِنَا كَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ شَكَرَ) (القمر:35) (إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِباً إِلَّا آلَ لُوطٍ نَجَّيْنَاهُمْ بِسَحَرٍ) (القمر:34)

والله يرسل صاعقة سماوية : (أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لا يَشْعُرُونَ) (النحل:45) .

البند الثاني

تأييد المؤمنين

وهنالك الآيات العديدة التي تفصح عن ذلك :

قال الله تعالى : (إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ) (الحج:38)

(وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ) (آل عمران: من الآية68)

والعزة للمؤمنين : (وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لا يَعْلَمُونَ) (المنافقون: من الآية8)

والله ينصر من نصره : (وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ) (الحج: من الآية40)

والغلبة على الكافرين : (قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَى جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ) (آل عمران:12)

وسيستخلف المؤمنين : (وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ)(النور: من الآية55)

ويورثهم الأرض : (وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ) (الانبياء:105)

ومآل الكافرين الذل : (إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ فِي الْأَذَلِّينَ) (المجادلة:20)

والخزي : (وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ) (التوبة: من الآية2)

البند الثالث

الجانب العقلي والمنطقي

ولا يقتصر الأمر على تثبيت المؤمنين وإشباع تشوقاتهم إلى السلام والرفعة ، بل يخاطب أعماق ملكاتنا وأكثرها رقياً فالخير ينير القلب ويزكي النفس ،ويدعم الإرادة ويمكنها والعكس .

قال تعالى : (وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ) (العنكبوت:69)

ويهدي المؤمنين : (مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ) (التغابن:11)

ويخرج المؤمنين إلى النور : (اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ)(البقرة: من الآية257)

ويصلح أعمالهم : (يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ) (الأحزاب: من الآية71)

وينزل السكينة : (هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَاناً مَعَ إِيمَانِهِمْ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً) (الفتح:4)

والضلال للظالمين : (يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ) (ابراهيم:27)

ويقسي قلوبهم : (وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً)(المائدة: من الآية13)

ويصمهم ويعميهم : (أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَى أَبْصَارَهُمْ) (محمد:23)

ويزيدهم مرضاً : (فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضاً وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ) (البقرة:10)

البند الرابع

الجانب الروحي

ولايقتصر الأمر على العقاب الخارجي ، وإنما ينفذ القرآن إلى الداخل .

فالله يحب المحسنين (إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ)(البقرة: من الآية 195)

ويحب الصابرين (وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ) (آل عمران: من الآية146)

ويحب المتقين (إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ) (التوبة: من الآية4)

ويحب الذين يقاتلون في سبيل الله (إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفّاً كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ) (الصف:4)

وهو مع الذين يخشونه : (إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ) (النحل:128)

وهو ولي المتقين (وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ) (الجاثية: من الآية19)

وهو لايحب الظالمين (وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ) (آل عمران: من الآية57)

وهو لايحب المسرفين (وَلا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ)(لأعراف: من الآية31)

وهو لايحب من كان خواناً كفوراً (وَلا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنْفُسَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَّاناً أَثِيماً) (النساء:107)

المطلب الثاني

الجزاء في الآخرة

وهنا نلحظ الحالات الآتية :

البند الأول

التذوق الأولي للمصير

وتتلقى الملائكة الصالحين بالتحية فور دعوتهم إلى بارئهم قال تعالى : (الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلامٌ عَلَيْكُمُ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ) (النحل:32)

وكم هو احترام الشهداء : (فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ) (آل عمران:170)

والظالمون سيواجهون واقعهم المرير : (وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلائِكَةُ بَاسِطُو أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ)(الأنعام: من الآية93)

وقوله تعالى : (وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ) (لأنفال:50)

البند الثاني الجنة والنار

لقد برعت وأبدعت يراعة القرآن الكريم في وصف مشاهد القيامة ثواباً طيباً لأعمال المؤمنين بما فعلوه في الحياة الدنيا كما أنها جزاء نكالاً بخذي الكافرين وخذلانهم واستهتارهم في نواميس الله .

ولامجال لإظهار الدقة والصدق وبراعة التصوير وحسبنا الإشارة إلى أهم المراجع التي كتبت في الموضوع [1].

[1] راجع في هذا الموضوع رائعة سيد قطب : مشاهد القيامة في القرآن ، القاهرة ، دار المعارف بمصر ، ط2 ، بدون تاريخ

المبحث الرابع

النية la intention

- تمهيد -

حركة تنزع منها الإرادة نحو هدف معين ، وأحيانا يطلق عليها كلمة fin أو : bute بمعنى غاية ، كما يطلق على الباعث الذي يحركها اسم mobile أو المسبب : motif [1].

ومهما تكن الألوان الدلالية ، فهنالك نوعان من مطلب الإرادة وهما : الماهية le quoi والسبب : le pour quoi مشيرين إلى أن علماء الأخلاق يعنون بالغاية ، أما علماء النفس والقانون فيبحثون عن النية الموضوعية .

وقد تستقر النية في حدود العمل ، فيمتصها امتصاصاً كاملاً ، دون أن يكون هنالك هدف آخر أو إرادة أخرى ، وبالعكس .

وعلى كل يواجهنا موضوع النية بالنقاط الآتية :

الفرع الأول

1- شرط التصديق بالعمل

لا يمكن لأي فعل أن يدخل دائرة الأخلاق إذا لم يكن إرادياً وشعورياً ، وهذا هو مفهوم قرآني نجد تجليته فيما يلي :

أ – الشعور النفسي وحضور الذهن فيما نقول ونفعل ، قال تعالى : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقْرَبُوا الصَّلاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ)(النساء: من الآية43) فالمطلوب منّا عند أداء الواجب رضا القلب والسرور والهمة ، فمثلاً لا يجوز دفع الصدقات عن إرغام وكسل ، قال تعالى : (وَلا يَأْتُونَ الصَّلاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالى وَلا يُنْفِقُونَ إلاّ وَهُمْ كَارِهُونَ) (التوبة: من الآية54)

[1] حنبكة : الأخلاق الإسلامية ، ج1 ، ص 135

فالعمل حِليتَهُ النية قال رسول الله ﷺ : " إنما الأعمال بالنيات "

ومع ذلك توجد بعض الشعائر الدينية التي تغاضى الفقهاء عن النية ، كما في حال الاستبراء والتطهر وسائر مقدمات الصلاة (مذهب الأحناف دون بقية المذاهب) .

لماذا هذا الاستثناء ؟؟...يذهب الأحناف إلى أن الإبطال الكلي للعمل غير المصحوب بنية يشمل الواجبات الأساسية .

ماذا بالنسبة للوقوف على جبل عرفات ؟؟

النية هنا عند الأحناف شرط كمال لا وجود [1]

ويدخل في ذلك الطهارة كمقدمة للصلاة .

ويرى الشاطبي أن لدينا خطابين : خطاب تكليف وخطاب وضع الشروط والأسباب وبيان حال الصحة وعدمها [2] .

والمدرسة العراقية تنضم إلى المدارس الأخرى في حتمية وجود النية كشرط ، وهذا يعني أن الحديث الذي يربط العمل بالضمير نال إجماع الفقهاء .

الفرع الثاني

النية وطبيعة العمل الأخلاقي

هل العمل السيء يكتسب بحسن النية القيمة الأخلاقية ؟

يقول كانت : " النية الحسنة في ذاتها هي الخير الأخلاقي والخير الوحيد في العالم وفي ما وراء العالم"[3].

فهذا الرأي يسمح بتسويغ جميع الأخطاء التي للضمير [4] .

وبالمقابل نجد في النظرية الأخلاقية الإسلامية ما يلي :

---

[1] د.دراز : الأخلاق الإسلامية ، ص 432

[2] الموافقات 287/1

[3] Kant : ?ondements pere phrase

[4] د.دراز : ص 438

1- عندما يخطئ من يقوم بعمل ، وهو ينوي مخالفة الواجب ، هنا نجد أن مادة العمل لا قيمة لها كأن يتناول شخص عصير الفاكهة على أنه خمر ويشربه استناداً إلى هذه النية .

2- هل للنية الحسنة هذه القوة لجعل الشر خيراً كان يدفع إيمان شخص إلى احتقار الأصنام دون أن يفكر بردود الفعل ؟

قال تعالى : (وَلا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْواً بِغَيْرِ عِلْمٍ) (الأنعام: من الآية108)

فالأخلاقيون المسلمون يرون أن الشر الأخلاقي لا يمكن أن يصبح خيراً بفضل كيمياء الإرادة ، وبهذا النوع من سذاجة الضمير الذي أخطأ طريقه يأتي كذلك من قصور الضمير الذي لا يرى أبعد من العمل المباشر ، بل إن هذا الخلط والتلوّن الذي يلجأ إليه يعتبر في أقوال الغزالي إثماً آخر قال : " بل قصده الخير بالشر " على خلاف مقتضى الشرع شر آخر ، فإن عرفه فهو معاند للشرع وإن جهله فهو عاصٍ بجهله فجهله مزدوج لأنه يجهل الشرع ويجهل أنه يجهله .

وقد قيل : أشد من الجهل.. الجهل بالجهل ، إذ طلب العلم فريضة على كل مسلم ، إنما تعرف كونها خيرات بالشرع فكيف يمكن أن يكون الخير شراً ؟؟ هيهات من قصد الخير عن جهل فهو غير معذور ، والمرأة الفاجر التي ترغب التصدق بالكسب الخبيث ، فأجمل الغايات وأعدلها في ذاتها لا يسوغ بالوسائل التي لا تقرها الأخلاق [1]

يقول الرسول ﷺ : (من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد) [2]

وقد قال الحسن البصري وسعيد بن جبير :

" لا يصلح قول وعمل إلا بنية ولا يصلح قول وعمل ونية إلا بموافقة السنة " [3]

---

[1] د.دراز : ص 443

[2] صحيح مسلم : كتاب الاقضية ، ص 46 ، باب

[3] ابن تيمية : الحسبة ، ص 92

وهناك شرط ثالث هو أن يكون التوافق والتطابق مراداً ومرضياً بكل حرية ، ولهذا قسَّم الرسول القضاة إلى ثلاثة طوائف :

قاضيان في النار وقاضٍ في الجنة ، فالذي في الجنة ، عرف الحق فقضى به ، والذي في النار رجل قضى للناس عن جهل ، ورجل عرف الحق فقضى بخلافه [1].

لكن أليس هذا يثير القلق ؟

في الحقيقة يجب أن نتذكر قوله تعالى :

(لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَهَا)(البقرة: من الآية286)

فارتكاب خطأ بسيط مقرون بحسن النية مآله العفو ، وهذا ما استقر عليه القرآن الكريم .

وليس معنى ذلك أن الاجتهاد الذي يصحب هذا الخطأ ويسوِّغه لا وزن له في الميزان الأخلاقي .

يقول رسول الله ﷺ : (إذا حكم الحاكم فاجتهد ثم أصاب فله أجران وإذا حكم فاجتهد ثم أخطا فله أجر) [2] .

الفرع الثالث

فضل النية على العمل

في الأخلاق الإسلامية يغلب الدافع القلبي على تعبيره الحسي ، وإن كان القرآن يلح على العاملين معاً .

قال تعالى : (مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحاً)(البقرة: من الآية62)

ولكن حينما لا نجد القرآن يمدح عملاً لا يستمد منبعه من أعماق النفس نجده يبرز عمل القلب وحده ، باعتباره قيمة في ذاته ، قال تعالى : (إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ)

---

[1] الترمذي : كتاب الأحكام ، باب (1)

[2] البخاري : كتاب الأحكام ، باب 21

(الحجرات:3)

وقال تعالى : (ذَلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ) (الحج:32)

نعم القرآن ، .. يعتمد على الجانبين ، لكن القيمة تتركز على العامل القلبي ، قال رسول الله ﷺ : (إن التقوى ههنا مشيراً إلى صدره مكرراً قولته ثلاثاً) [1] .

ويقول الإمام الغزالي : " والتقوى صفة قلبٍ مال عن حب الدنيا وبذلها إيثاراً لوجه الله تعالى " [2].

والسؤال الذي يطرح نفسه هو :

هل إن العنصر الأخلاقي يؤثر على العنصر المادي .؟

قال رسول الله ﷺ : (ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله ، وإذا فسدت فسد ، ألا وهي القلب)[3] .

يقول الترمذي : " فكذلك القلب إذا فسد لا يغرنك صلاته وصومه وعمل جوارحه ، فلو أن جميع جوارحه تزينت بجميع الطاعات ، ثم دامت تلك الطاعات على الجوارح وامتدت المدة في تلك الجوارح على الطاعات ، ولم يكن في قلبه من الغنى ما يمد الجوارح بقيت الجوارح معطلة والقلب مغتر ، فماذا أغنى هذا الظاهر عن الجوارح ، وإذا كان القلب غنياً والجوارح معطلة ففي أدنى حركة في القلب توسع الجوارح خيراً وبراً " [4]

ودور الفعل الخارجي أن يستدير إلى الداخل ليتغذى منه قال تعالى : (يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَثْبِيتاً مِنْ أَنْفُسِهِمْ)(البقرة: من الآية 265)

قال الغزالي : " وهذا هو شأن الأعمال الصالحة ، فالهدف منها أساساً تغيير صفات أنفسنا فلا تفيد من وضع الجبهة على الأرض غرضاً من حيث أنه جمع بين الجبهة والأرض ، بل من

---

[1] صحيح مسلم : كتاب البر ، باب 7

[2] الأحياء 4 /357

[3] صحيح البخاري : باب 29

[4] الترمذي : الجواب السائل ، ص 190

حيث إنه بحكم العادة يؤكد صفة التواضع في القلب فانه من يجد في نفسه تواضعاً فإذا استكان بأعضائه وصورها بصورة التواضع تأكد تواضعه ".

فهناك حركة دائرية تصعد من المركز إلى المحيط لتتجلى في شكل خير موضوعي ، ثم تهبط بعد ذلك من المحيط إلى المركز لتتحول إلى خير شخصي [1]

لكن السؤال المهم هو :

هل يمكن أن يكون عمل الجوارح هو الأهم والمركز و الإشعاع ؟؟

الفرع الرابع

هل تكفي النية بنفسها في تحقيق العمل الأخلاقي ؟

كيف عالج القرآن الكريم هذه القضية ؟؟

لقد دعا الرسول ﷺ بعض المتخلفين عن الهجرة إلى أن يتركوا بلدهم ، حيث كان عدوهم مسيطراً فلم يستجيبوا بحجة أنهم مستضعفون في الأرض ، فأجاب القرآن : (أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا)(النساء: من الآية97) .

وطبعا استثني من ذلك : (إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلا يَهْتَدُونَ سَبِيلاً) (النساء:98)

أما بشأن النية التي لم تترجم إلى عمل لمعاكسة الأحداث لها فليست المسالة أن نعرف إن كانت لها وحدها قيمة أخلاقية أم كانت كافية تستوجب المثوبة أو العقوبة ، إذ بلا شك أن المسؤولية الأخلاقية تكون كاملة متى ما اتخذ القرار .

قال تعالى : (إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً) (الإسراء: من الآية36) .

لكن المسألة الحقيقية أن نعرف ما إذا كانت القيمة الأخلاقية تتحقق كاملاً بالنسبة لقرار آخر حيل بينه وبين التحقق .

---

[1] الإحياء ، ص 356

هل نضع الحالتين على قدم المساواة ؟؟... قال رسول الله ﷺ : (إذا التقى المسلمان بسيفهما فالقاتل والمقتول في النار فقلت : يا رسول الله هذا القاتل فما بال المقتول : قال : إنه كان حريصا على قتل صاحبه) [1].

وفي حديث آخر : (إن بالمدينة أقواماً ما سرتم مسيراً أو قطعتم وادياً إلا كانوا معكم حبسهم القدر)

وخير من ذلك أن الفقراء الذين يغبطون[2] المتصدقين لينالوا الثواب نفسه عند الله وفي المقابل أولئك الذين تفتن أبصارهم ما عليه شرار الأغنياء من ترف وسرف فيتمنون أن يحوزوا أموال الدنيا حتى ينعموا مثلهم فهؤلاء لهم الصفات نفسها [3] .

والخلاصة أن النية كلما اقتربت من العمل غنيت بالقيم [4].

الجهد

مقدمة

العمل هو السلاح الوحيد الهجومي والدفاعي في معركة الفضيلة ، والكائن الأخلاقي خلق محدوداً ناقصاً قابلاً للكمال ، فهو بذرة تنطوي على جميع عناصر النمو والكمال ، قال تعالى : (وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئاً وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ) (النحل:78)

والنفس الإنسانية قابلة للترقي والتردي : (قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا) (الشمس:9-10)

---

[1] البخاري : كتاب الإيمان ، باب /23/

[2] أن يتمنى المرء أن يكون له مثلما لغيره حتى يفعل مثله

[3] الترمذي كتاب الزهد ، باب 27حديث 2325

[4] د.دراز : المرجع السابق ، ص 465

والجهد لا يتحدد بالعمل فقط ، بل بالعمل المؤثر الفعال ونعتقد أن الجهد المبدع في الإسلام هو الصاروخ الحضاري السلمي في معركة الحياة والتقدم .

والجهد الأخلاقي في الإسلام يثير النقاط الآتية :

الفرع الأول

جهد انبعاث تلقائي

يقول سيجور : الإنسان يفخر بكل جهد ، هذا فضلاً عن أن تمجيد روح الكفاح والتضحية أمر فطري ، قال كانت : ربما كان من تفاهة التفكير والسطحية وشطحات الخيال أن تخص الروح بطيبه تلقائية لا تحتاج إلى محرك يحثها أو إلى لجام يلجمها [1].

ولنفترض أن لدينا فاعلين أحدهما يؤدي دوره برشاقة والآخر بالعكس ، أليس من واجبنا أن نحتفظ للجهد بكل القيمة ، وأن نستبعد من حساب القيمة ما كان تلقائياً .

وإذا كان هكذا الجهد ، أفلا يترتب على ذلك أن تحتل نفس القديس أدنى الدرجات من سلم القيم ؟؟

والحق إن الفضيلة ليست ثمرة خالصة من ثمرات الطبيعة ، كما أنها ليست نتيجة الاكتساب المطلق ، فأشر الناس فيه بذره طيبة وأطهر الناس لا يستغني عن الجهد ، ويمكننا القول إن القرآن الكريم أنقذنا من هذه الدوامة المربكة بالتمييز بين مفهومين أخلاقيين هما جهد المدافعة effort sliminiton والجهد المبدع : effort creatrice ، فما هما هذان المفهومان ؟؟

[1] Kant : crit de la raison pratique ,89

الفرع الثاني

جهد المدافعة

وهو الجهد أو القوة التي نبذلها في مقاومة الشر ، قال تعالى : (فَأَمَّا مَنْ طَغَى وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى) (النازعات:37-41)

ولكن هل يقتضي هذا البذل تضحية كبرى ؟؟

ثم هل الشر الأخلاقي وليد الحياة ؟؟

لا شك أن كثيراً من الأشخاص مزودين بقدر من الخير تختلف درجاته من شخص لآخر ، وهذا قد يكون مصدره استعداد فطري لدى الإنسان أو قد يكون ثمرة جهد وكفاح شخصي متجدد ، قال تعالى : (وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ) (العنكبوت:69)

ومع ذلك فالقرآن الكريم ذم الذين لا يؤتون الصلاة ، إلا وهم كسالى ولا ينفقون إلا وهم كارهون.

ولكن نفس المؤمن قد تكون متوترة من أجل فعل الخير ، متوثبة جياشة في سبيله ، فهل إذا حدث لها هنة بسيطة وركود عارض يمحو جيشانها .

....وهذه هي قصة الصوفي أبو محمد المرتعش فقد اعتاد أن يفرض على نفسه كل أنواع المشقات أثناء فريضة الحج ، ولكنه حدث أن طلبت منه أمه أن يستقي لها جرة ماء ، فثقل ذلك على نفسه .

فتكوين الطبع الأخلاقي – ولا شك – يأتي تلبية لجهد إنساني ، قال تعالى : (وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ) (العنكبوت:69)

وقال تعالى : (وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدىً وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ) (محمد:17)

يقول رسول الله ﷺ :(من يستعفف يعفه الله ومن يتصبر يصبره الله ومن يستغن يغنه الله)[1] ولكن الأخلاق – وبالمعنى الكامل – هي مشروع لتحقيق القيم وليست صفة سلبية بأن نكف أنفسنا عن فعل الشر ، قال رسول الله ﷺ : " على كل مسلم صدقة قالوا : فإن لم يجد قال : فيعمل بيديه فينفع نفسه ويتصدق قالوا : فإن لم يفعل : قال : فيؤمر بالجهد قالوا : فان لم يفعل قال : فيمسك عن الشر فإنه له صدقة " [2].

الفرع الثالث

الجهد المبدع

هل نستطيع القول أن أخلاق المروءة المعهودة عند عرب الجاهلية من طينة أخلاقية تقارب طينة الجهد المبدع في الإسلام ، وإن كان الجهد المبدع قيمة أكثر نظاماً وشمولاً وعمقاً ودقة وأناة وموضوعية وبعداً عن التهور .

ما هو هذا الجهاز المفاهيمي الأخلاقي ؟؟

هو المرحلة التي تلي اقتلاع الأعشاب الضارة من الحقل ، أي مرحلة اتباع هذا الحقل وإثماره وإخصابه ، قال تعالى : (وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ) (التوبة: من الآية105)

وقال تعالى : (وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ)(آل عمران: من الآية136)

وقال رسول الله ﷺ : احرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز [3]

فالجهد المبدع ليس اختيار إرادي فحسب ، بل اختيار الأصلح والأحسن ، قال تعالى : (فَبَشِّرْ عِبَادِ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ)(الزمر: من الآية 17- 18)

وقوله تعالى : (فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ)(المائدة: من الآية48)

---

[1] البخاري : كتاب الرقائق باب /69

[2] البخاري : كتاب الأدب

[3] صحيح مسلم : كتاب القدر ، باب /8

وقوله تعالى : (وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ أولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ) (الواقعة:10- 11)

وقوله ﷺ : (إن الله يحب معالي الأمور ويكره سفاسفها) [1]

فالقرآن الكريم يحثنا على أسمى الأعمال قال تعالى : (وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ) (الأنفال:7)

لكن أليس هنالك حد لتلك الدعوة ؟؟ ...لا ريب أنه عندما تكون إحدى القيم الرفيعة في خطر : الموطن والدين مثلاً ، فعلى الإنسان أن يبذل حتى النفس ، لكن ماذا بالنسبة للحالات العادية ؟؟

لا شك أن القرآن الكريم يؤيد أهل الأخلاق الطيبين ، ولا يمكن أن يقاس الخالف بالمجاهد ، يقول تعالى : (لا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أو لِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ) (النساء: من الآية95)

والأمر نفسه نجده في الإنفاق : يقول تعالى : (لا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلّاً وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ)(الحديد: من الآية10)

قال رسول الله ﷺ : (المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف) [2]

هكذا صنف الحكماء والأخلاقيون الإسلاميون الأعمال إلى درجات ومراتب وقصة الإعرابي الذي قال : والذي أكرمك لا أتطوع شيئا ولا أنقص شيئاً فكان جواب رسول الله ﷺ : أفلح إن صدق [3]

---

[1] السيوطي : الجامع الصغير 75/1

[2] صحيح مسلم كتاب القدر باب 8

[3] البخاري : كتاب الحيل /باب 3

وهكذا يفهم الجهد المبدع لا على أساس درجة معينة تقاس عندها الأشياء ، بل إلى ذلك الامتداد المتسع فوق التكليف ..الذي يتسع لكل تنافس والذي يختلف في سعته بين إنسان وآخر حسب قدراته .

ويمكن تلخيص عناصر الجهد المبدع فيما يلي : الاختيار الحر – الإرادي – الاختيار الصالح – الاختيار الأفضل .

والصالحون المسلمون لا يفتأون يتدفقون سطوعاً وعطاء بعد عطاء وما تكاد أنفسهم تأخذ قسطاً من الهوينى حتى يندفعوا إلى عطاء جديد ومغامرة جديدة عطاء للروح الإنسانية ، قال تعالى : (فَإِذَا فَرَغْتَ فَانْصَبْ وَإِلى رَبِّكَ فَارْغَبْ) (الشرح:7-8)

ولكن سؤالاً يطرح نفسه وهو : هل القداسة تنتظم في درجات ، قال تعالى : (تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ) (البقرة: من الآية253)

وقوله تعالى : (وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ) (الإسراء: من الآية55)

وإذا كان بعض الرسل أكمل من البعض ، إلا أنهم جميعا كاملون ، قال تعالى : (لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ) (البقرة: من الآية285)

ولكن ماذا بالنسبة للأصفياء ، هؤلاء سرعان ما يرجعون ويتجاوزون الضعف ، قال تعالى : (وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أو ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ) (آل عمران:135)

لكن إذا كان يسعى ويبذل ويكد فهذا لا يعني أنه يتجافى عن الطيبات قال تعالى : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ) (المائدة:87)

وقال رسول الله ﷺ : (لكنني أصلي وأنام وأفطر وأتزوج النساء ، فمن رغب عن سنتي فليس مني) [1]

لذلك كان الرسول يمنع الموسرين أن يتبرعوا بكل أموالهم وهو القائل : (أمسك عليك بعض مالك فهو خير لك) [2]

والخلاصة أن العمل والاقتحام وجوْب الأرض والسير فيها والتضحية والإيثار وبذل النفس كلها معاني تنطوي على الجهد المبدع في الإسلام ، والرسول ﷺ كان يقول : (الحر والبرد والعرق والنصب والعطش لا تمنعنا من عملنا)

لكن الإسلام حريص كل الحرص على موازنة هذا القانون بقانون آخر يضع بعض الكوابح على الجهد المطلق ، وقد رأينا ذلك في بذل المال .

فالمبدأ : هو الجهاد بكل شيء قال تعالى : (انْفِرُوا خِفَافاً وَثِقَالاً وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ) (التوبة:41)

وهذا الجهاد والتضحية ضمن إطار الكوابح والضوابط والموازنة التي أشرنا إليها .

المبحث السادس

مجالات نظرية الأخلاق في الإسلام

نعتقد أن الإسلام لم يترك صغيرة ولا كبيرة في الأخلاق إلا نظمها وعالجها وعانقها وأحصاها ، وقد أشرنا سابقاً إلى تغلغل النظرية الأخلاقية في الإسلام إلى كافة مجالات الحياة لا نستثنى قيم العقيدة أو مجالات حياة الدار الآخرة.

أجل كان لزاماً علينا أن نتابع نظرية الأخلاق في كافة هذه المظان والميادين ، ولكننا أمسكنا عن ذلك للأسباب التالية :

1- سيقودنا ذلك إلى الإسهاب والتطويل الخارج عن نطاق البحث .

[1] صحيح مسلم : كتاب النكاح باب /1

[2] البخاري كتاب وجوب الزكاة باب /87

2- إن دراستنا مقيدة ببحث هذه الأخلاق كناهض وميكانزم ومحرك وفاعل لهذه الأمة ، وليس بحثاً مجرداً يدرس نظرية الأخلاق في ذاتها بعيدا عن أكلها وقطافها الاجتماعية التاريخية الحضارية حتى الايديولوجية ومقاربتها دون أن يتحول البحث إلى ايدلوجيا خالصة ودون أن يتجرد عن المعاني العلمية والمعرفية .

3- أكثرنا من الشواهد القرآنية والنبوية التي تتعلق بالجانب التطبيقي لنظرية الأخلاق الإسلامية .

هذه الاعتبارات مجتمعة دفعتنا إلى الاكتفاء بعلم تطبيقي [1] واحد هو انبساط نظرية الأخلاق الإسلامية إلى إطار الدولة وحقلها ونظمها وحياتها وفلسفتها .

الفرع الأول

نظرية الأخلاق الإسلامية في مجال الدولة

هذا الموضوع ضخم الجنبات وعر المسالك ، ولهذا سنكتفي منه بالآتي :

[1] من المحدثين الذين كتبوا في المجال العملي التطبيقي للنظرية الأخلاقية الإسلامية :

أ – الشيخ محمد الغزالي : خلق المسلم ، دار العلم –دمشق ،2003

ب – عبد الرحمن حبنكة الميداني : الأخلاق الإسلامية ج2

ومن كتب التراث الذين اشبعوا هذا الموضوع تحليلاً نظرياً وعملياً الماوردي : أدب الدنيا والدين .

المطلب الأول

مسألة التأسيس

الدولة في الفكر الغربي جهاز في خدمة فكرة [1] في حين أن الأمة هي المؤسسة أو المشروع الفكري التي تنشئها الشريعة [2] .

وترتيباً على ذلك فالدولة ليست مؤسسة في ذاتها في الفكر وفي الفقه الإسلاميين ، وإنما المطلق والمقدس والأساس من وضع له الشرع والشريعة أي الأمة ، فالمقابلة بين المقدس وغير المقدس هي المقابلة بين الأمة والدولة بالشأن التنظيمي العام للمجتمع [3]

فالتشريع الإسلامي له مظهران : مظهر التشريعات الموجهة إلى الأفراد ، إلى الأشخاص المكلفين ، والتشريعات الموجهة إلى الأمة ، ولا يوجد في الفقه الإسلامي على الإطلاق خطابات شرعية موجهة إلى الدولة ، فهي كائن مخلوق للأمة ، وهي ليست تعبيراً في مقابل الفكرة الهيغلية التي تعتبر الدولة تجريداً عالياً ، أو تجريداً مقدساً للأمة والمجتمع ، بحيث أنها تعبر عن روح الأمة وعن روح المجتمع .

هذه الفكرة الهيغلية غريبة تماماً على الإسلام ديناً وشريعة أو فقهاً وفكراً .

الدولة في الفكر والفقه الإسلامي لا تتمتع بهذه المنزلة على الإطلاق ، إذ فوق الأمة لا يوجد أي تجريد آخر ولا يوجد أي تركيب أو تشكيل آخر [4]

وهذا يذكرنا بالصراع الذي ساد في الفكر الأوروبي بين نظرية سيادة الأمة ونظرية سيادة الشعب ، حيث كانت النظرية الأولى تجرد من الأمة أشخاصاً متساويين ومتجانسين ومتحدين

---

[1] جورج بوردو : الدولة – ترجمة سليم حداد ، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع ، بيروت 985 ، ط1، ص70

[2] سماحة الإمام آية الله الشيخ مهدي شمس الدين : الأمة والدولة والحركة الإسلامية ، المجلس الإسلامي الشيعي الأعلى – بيروت ، 994 ص 37

[3] المرجع السابق ص 22

[4] المرجع السابق ص 23

(هم الطبقة الغنية) ، ويجعل من هذا التجريد مثلاً للأمة[1] في حين أن نظرية سيادة الشعب ترى أن كل فرد يمتلك جزءاً من السيادة للأمة (تقترب هذه النظرية من نظرية السيادة للأمة في الفكر الإسلامي) .

ولعل البروليتاريا في تعبيرها عن روح الأمة في الفكر الماركسي مثال واضح لنظرية سيادة الأمة ، وهي مقاربة حية للفكر الهيغلي ، باعتبارها تقوم على تجريد شديد وتشخيص أكبر لمفهوم البروليتاريا .

ولعلنا نجد سيادة الأمة وسيادة الشعب هي المطبقة والمعتنقة في أكثر نظم الحكم العربية .

ونظرية سيادة الشعب قريبة جداً من التأسيس الإسلامي ، ذلك لأن " كل تشريع في الإسلام إنما يخاطب الفرد ، ولا توجد خطابات للدولة على الإطلاق ، الأمر الذي يعني أنه في الفكر الإسلامي وفي الشرع الإسلامي لم تلحظ الدولة باعتبارها مشروعاً مستقلاً بذاته ومفروضاً من فوق على الإطلاق ، كما هو الشأن في مشروع الدولة في الفكر الغربي .

يترتب على كل ذلك أن الدولة – في الفكر والفقه الإسلاميين –كلها غير مقدسة ، ولا يوجد فيهما مقدس على الإطلاق ، والمقابلة ليست بين المقدس وغير المقدس في الدولة ، وإنما بين الدولة والأمة ، أي بين المقدس وغير المقدس في الفقه وفي الفكر الإسلاميين [2].

هذا ويترتب على ما قلناه النتائج الآتية :

1- نرفض فكرة العقد الاجتماعي بين الأمة والدولة ، فالدولة ليست شخصاً قانونياً يقف أمام الأمة ويتعاقد معها ، بل إن الدولة مسألة تنظيمية مخلوق من قبل الخالق الذي هو الأمة.

والعلاقة بين الأمة والدولة تقوم على تكليف وتوكيل بإرادة واحدة للأمة توكل بذلك الدولة ،وهذه الأخيرة مقيدة ومحددة بهذا التوكيل (نقصد بالدولة هنا السلطة الحاكمة).

[1] المرجع السابق ص 38

[2] المرجع السابق ص 31

2- ما دام التأسيسي يقوم على الفكر ، فنحن حيال مسالة أخلاقية محضة تنتفي منها فكرة الاستحواذ والقوة الموجهة من الدولة للأمة لا سيما أن الأمة هي الأصل والأساس للمشروع.

المطلب الثاني

الأصول والمبادئ المترتبة على فكرة التأسيس

لم يتردد المرحوم المجاهد عبد الرحمن ابن باديس أن يرسم لنا صورة للنظام السياسي في الإسلام ، يرد فيها أصول الولاية في الإسلام إلى ثلاثة عشر أصلاً اشتقها من خطبة سيدنا أبي بكر الصديق المشهورة لما بويع بالخلافة ، كما اعتبرها خير أصول تتدارك البشرية وتنجبها من تعاسة العالم اليوم وهذه الأصول هي :

الأصل الأول : لا حق لأحد في ولاية أمر من أمور الأمة إلا بتولية الأمة ، فالأمة هي صاحبة الحق والسلطة في الولاية والعزل .

الأصل الثاني : الذي يتولى أمر من أمور الأمة هو أكفؤها فيها لا خيرها في سلوكه .

الأصل الثالث : لا يكون أحد - بمجرد ولايته أمراً من أمور الأمة - خيراً من الأمة ، وإنما تنال الخيرية بالأعمال .

الأصل الرابع : حق الأمة في مراقبة أولي الأمر لأنها مصدر سلطتهم وصاحبة النظر في ولايتهم وعزلهم .

الأصل الخامس : حق الوالي على الأمة فيما تبذله من عون إذ رأت استقامته ، فيجب عليها أن تتضامن معه وتؤيده ، وهي شريكة معه في المسؤولية .

الأصل السادس : حق الوالي على الأمة في نصحه وإرشاده ودلالته على الحق إذا ضل عنه .

الأصل السابع : حق الأمة في مناقشة أولي الأمر ومحاسبتهم على أعمالهم وحملهم على ما تراه هي لا ما يرونه هم ، فالكلمة الأخيرة لها لا لهم .

الأصل الثامن : على من تولى أمور الأمة أن يبين لها الخطة التي يسير عليها ليكونوا على بصيرة ، ويكون سائراً في تلك الخطة عن رضى الأمة ، إذ ليس له أن يسير على ما يرضيه ، وإنما عليه أن يسير فيهم فيما يرضيهم .

الأصل التاسع : لا تحكم الأمة إلا بالقانون الذي رضيته لنفسها وعرفت منه فائدتها وما الولاة إلا منفذون لإرادتها ، فهي تطيع القانون لأنه قانونها لا لأن سلطة أخرى لفرد أو لجماعة فرضته عليها كائناً من كان ذلك الفرد ، وكائنة من كانت تلك الجماعة فتشعر بأنها حرة في تصرفاتها ، وأنها تسير نفسها بنفسها وأنها ليست ملكا لغيرها من الناس ، ويشعر هذا الشعور كل فرد من أفرادها ، إذ هذه الحرية والسيادة حق طبيعي وشرعي لها ولكل فرد من أفرادها .

الأصل العاشر : الناس كلهم أمام القانون سواء لا فرق بين قويهم وضعيفهم فيطبق على القوي دون رهبة لقوته ، وعلى الضعيف دون رقه لضعفه .

الأصل الحادي عشر : صون الحقوق - حقوق للأفراد وحقوق للجماعات- فلا يضيع حق ضعيف لضعفه ، ولا يذهب قوي بحق أحد لقوته .

الأصل الثاني عشر : حفظ التوازن بين طبقات الأمة عند صون الحقوق فيؤخذ الحق من القوي دون أن يقس عليه لقوته فيتعدى عليه حتى يضعف وينكسر ويعطى الضعيف حقه دون أن يدلل لضعفه فيعطى عليه وينقلب معتدياً على غيره .

الأصل الثالث عشر : شعور الراعي والرعية بالمسؤولية المشتركة بينهما من صلاح المجتمع وشعورهما – دائماً – بالتقصير في القيام بها ليستمرا على العمل بجد واجتهاد فيتوجهان بطلب المغفرة من الله الرقيب عليهما .

ولا شك أنه ليس كل جميع تضاعيف هذا النص ذا سمة أخلاقية ، وإنما تداخلت وامتزجت الأحكام القانونية مع التوجهات والإرشادات الخلقية ، وتلك هي الخصيصة التي تشرف التشريع الإسلامي .

وكما قال الأستاذ عبد الرحمن البزاز : ليس هنا الأحكام القانونية قائمة بذاتها مجردة عن صفتها الأخلاقية [1] .

وهذا ما عبر عنه حسن البنا بقوله : وحدة الأمة في إطار من الأخوة الإسلامية بين أفرادها لا يتحقق المعنى الكامل للإسلام إلا أنها وحده روحية ووحدة اجتماعية [2].

الفرع الثاني

بعض القيم الأخلاقية التي قررها الإسلام على صعيد الدولة

أولاً : العلاقة بين الرئيس والشعب

أ- واجب الرؤساء

مشاورة الشعب : قال تعالى : (فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظّاً غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ) (آل عمران:159)

إمضاء القرار النهائي : قال تعالى : (فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ) (آل عمران:159)

الحكم بالعدل : قال تعالى : (وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ) (النساء: من الآية58)

---

[1] آثار ابن باديس ج1 – ص 401 -405 (الشهاب ج1 ، 12 ص 468 -474 ذي القعدة ، كانون ثاني 1948)

- انظر د فهمي جدعان : أسس التقدم ص 348 كتابه من روح الإسلام

[2] كتابه مشكلاتنا الداخلية في ضوء النظام الإسلامي (مجموعة رسائل الإمام حسن البنا / ص359

إقرار النظام : قال تعالى : (إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَاداً أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ) (المائدة:33)

صون الأموال العامة : قال تعالى : (وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ وَمَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ) (آل عمران:161)

حرية الأقليات : قال تعالى : (فَإِنْ جَاءُوكَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ) (المائدة: من الآية42)

ب- واجبات الشعب

النظام : قال تعالى : (وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا) (الحشر: من الآية7)

الطاعة المشروطة : قال تعالى : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً) (النساء:59)

الاتحاد حول المثل الأعلى : قال تعالى : (وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً وَلا تَفَرَّقُوا) (آل عمران: من الآية 103)

التشاور : (وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُم)(الشورى: من الآية38)

تجنب الفساد : (وَلا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاحِهَا) (لأعراف: من الآية56)

إعداد الدفاع العام : (وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ) (لأنفال: من الآية60)

الرقابة الأخلاقية : (وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ

وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلاً) (النساء:83)

تجنب موالاة العدو : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ) (الممتحنة: من الآية1)

ثانياً : العلاقات الخارجية

الاهتمام بالسلام العام : (لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ) (التوبة:128)

الحوار : (ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ) (النحل:125)

نبذ الإكراه : (لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ)(البقرة: من الآية256)

(لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ) (الغاشية:22)

عدم إثارة الكراهية : (وَلا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْواً بِغَيْرِ عِلْمٍ)(الأنعام: من الآية108)

نبذ الاستبداد : (تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوّاً فِي الْأَرْضِ وَلا فَسَاداً وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ) (القصص:83)

عدم المساس بالمحايدين : (فَإِنِ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلاً)(النساء: من الآية90)

ج –في حال الخصومة

عدم المبادرة بالشر : (وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَنْ صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَنْ تَعْتَدُوا وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى)(المائدة: من الآية2)

عدم القتال في الأماكن المحرمة : (وَلا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيه) (البقرة: من الآية191)

الدفاع عن النفس : (أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ) (الحج:39)

مساعدة المستضعفين : (وَمَا لَكُمْ لا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا)(النساء: من الآية75)

قتال المقاتلة وحدها : (وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ) (البقرة:190)

عدم الهروب من الكفار : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفاً فَلا تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبَارَ) (لأنفال:15)

الثبات : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيراً لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ) (لأنفال:45)

الصبر : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ) (آل عمران:200)

عدم الخوف من الموت : (أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكْكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ)(النساء: من الآية78)

مكائد الكفار : (وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ) (البقرة: من الآية191)

أنتم الأعلون : (فَلا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَنْ يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ) (محمد:35) (وَلا تَهِنُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ) (آل عمران:139)

الوفاء بالمعاهدات : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ)(المائدة: من الآية1)

مواجهة الخيانة : (وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ) (لأنفال:58)

الوفاء بالشروط : (وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ)(النحل: من الآية91)

الأخوة الإنسانية : (يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ)(النساء: من الآية1)

بذل السلام للعالم : سئل رسول الله ﷺ عن أحسن عمل يعمله الإنسان فقال : بذل السلام للعالم .

المبحث السابع

الساحة الأخلاقية في حضارتنا ومسألة دروب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

تمهيد

لقد أبرزنا الجانب النظري من النظرية الأخلاقية الإسلامية ، دور الكفاح والعمل والتضحية والبذل والعطاء والإيثار ونكران التراث والجهاد ، دور ذلك في صلب وماهية الثقافة الإسلامية .

وسنتقفى – ذلك على الأرض والواقع – وما اجترحته في هذا المضمار ، وذلك في المظهرين الآتيين :

1- إبراز بعض التنظيرات والنزعات والاتجاهات الأخلاقية التي تأسست وأرسيت لدى أمتنا في ظل النظرية الأخلاقية الأم القرآنية

2- الفقيه كمثقف عضوي موقع عن رب العالمين وممثل للأمة ودوره حاملاً تاريخياً للمعنى القرآني .

الفرع الأول

رصد بعض الأنظار الخلقية في حضارتنا

على ضوء النظرية الخلقية في القرآن والسنة النبوية

من هو بقادر أن يأتي بقدر ومثل ما أتى به الإسلام ؟؟...ثم من يستطيع أن يشادد الله ورسوله ؟؟

هل تردد قول الشاعر[1] :

حلف الزمان ليأتين بمثله حلفت يمينك يا زمان فكفر

والتف المسلمون حول الإسلام التفاف السوار بالمعصم وأعطوه أجمل ما تعطيه دعوة ورسالة.

ولكن ما يجب قوله : إن القرآن الكريم –الذي يحكم الحياة أزلاً وأبداً – جمال معان ، وقد استعان لذلك بمبادئ عامة ، وهنا نذكر بوصف الفيلسوف هيجل للقرآن بأنه كتاب الحركة ، وكل ما فيه يدعو إلى الحركة إلا وجهه الكريم ، ومن يجتهد ويخطئ فله أجر ، أما إذا أصاب فله أجران ، وعلم الفقه فهم وأسس على أنه علم الخلافيات .

فالنص القرآن ي –وفرعه النص الأخلاقي –هو نص الحركة والحيوية والفعالية والتجريد حسب الحامل التاريخي حامل المكان والزمان ومشروطية المصالح والشعوب والأمم التي احتضنت هذا الدين .

ويترتب على ذلك السؤال التالي: (الذي طرح على العقل الإسلامي) : ما هو العقل الأخلاقي في القرآن وماذا كان رأيه العام في الأخلاق ؟؟...

ما هي القيمة المركزية للأخلاق في الإسلام ؟؟

لقد كان مفروض علينا للإجابة عن ذلك أن نبلور النموذج الذي نحتكم عليه والميزان السليم الذي نزن به المقادير ، وهذا ما فعلناه في الصفحات السابقة ، أما ما نسعى إليه الآن فهو

[1] ينسب هذا البيت لسيدتنا فاطمة ابنة الرسول ﷺ في رثاء والدها .

مناقشة بعض الأنظار الأخلاقية التي ارتسمت على أديم حضارتنا ، كل ذلك على ضوء المعيار العام المستخلص من عقل القرآن وعقل الحديث النبوي .

ولا شك أنه كثر القول والكلام عن الناموس الخلقي في الإسلام من قبل رجال الفقه والفلاسفة والدين والآداب الشرعية وأصحاب علم الكلام وغيرهم ، هكذا إن كان لنا أن نكتب في هذا الموضوع فما علينا إلا أن نتلمس المفاصل الأساسية فيه .

ولعل أقدم نصوص في الأخلاق وبالذات في حقل الموروث الإسلامي الخالص كانت للحارث بن أسد المحاسبي في أخلاق الدين [1] والكلام عن رأي المحاسبي في الأخلاق يطول ، وحسبنا القول مع الدكتور الجابري أنه شيد (بخطاب مرتب منظم عالم ما أسماه بأخلاق الدين ، وهي بالتحديد أخلاق الاستعداد (للآخرة)[2]

ولكن هل تقول لنا هكذا نظرية الأخلاق القرآنية كما تبين لنا ذكره سابقا ولا سيما من بحث : الجهد المبدع ثم أليس الإسلام دين ودنيا [3]؟؟

لقد كتب لنا الماوردي في هذا الموضوع في كتابه الذائع الصيت (أدب الدنيا والدين) حوالي 358 صفحة ، تكلم فيها عن أدب الدين ، في 39 صفحة (الباب الثالث) في حين تكلم في بقية الكتاب عن أدب الدنيا[4] ، وفضلاً عن ذلك فقد خصص حوالي ثلاثين صفحة للمروءة ، وهي من هي هذه المروءة ؟؟

إنها أخلاق القوة الاجتماعية التي حملت الإسلام فهي – كما سنرى – القيمة المركزية في أخلاق العرب .

---

[1] د.الجابري –العقل الأخلاقي الغربي ص 537 و547

[2] المرجع السابق ص 507

[3] الماوردي : أدب الدنيا والدين

[4] الماوردي : أدب الدنيا والدين ، تحقيق د. محمد الصباح ، مكتبة الحياة للطباعة والنشر ، 987 ، بيروت

يقول د. فهمي جدعان : (مجمل أراء الماوردي تمثل نظرية في التوازن ، التوازن الجوهري ، كما تعلن عنه الحقيقة – الأصل أو الحقيقة الوحي .

وإذا كانت نظرية الغزالي ، أحادية القطب أي إلهية ، إلهية المركز تحيل الوجود الإنساني إلى الوجود الإلهي إحالة تكاد تكون تامة ، فان نظرية الماوردي تتحرك بين قطبين : الله والإنسان – الدنيا والآخرة ، الدين والدين ، الأرض والسماء بينهما حالة من التوازن لا طغيان لأحدهما على الآخر) [1]

بيد أنه قبل دخولنا في نفق الأفول – الأفول ليس فترة وجيزة أو سبب تاريخي واحد ، وإنما هو تراكم تاريخي – لا بد من التعريج على فقيه كبير أحسّ بهذا المآل وانبرى يحذر من وقوعه ، ويرسم لنا الضوابط والطريق المنهجي لتجنب وقوعه .

هذا الفقيه هو إمام الحرمين الجويني في كتابه غياث الأمم عند التياث الظلم [2]

ولا شك أن هذا الطرح الفقهي القائم على العقل والمعرفة ونخل الشريعة واستقراء أحكامها وتأسيسها منهجياً هو عمل معرفي سليم ، فهو إذن أخلاقي في دوافعه ونتائجه لا سيما أن دائرة الأخلاق تبسط رداءها كلياً على فقه الشريعة الإسلامية.

ولعل بداية المشكلة في ضمير الجويني تكمن في إدراكه بداية الانحطاط والتحول عن الموقعين عن رب العالمين والحاملين علم النبوة إلى الموقعين عن السلاطين [3].

يتساءل الجويني عن الموقف العملي المستعجل الواجب اتخاذه من قبل الأمة عند فساد وشغور الزمان أي فساد الأمراء والعلماء معاً [4] ، وهنا يفترض أن الأمة هي البديل الذي يعوض فقدان السلطة .

---

[1] أسس التقدم : ص 1

[2] تحقيق عبد العظيم الديب ط1 –مطبعة نهضة – مصر 1401 هـ

[3] عبد المجيد الصغير : الفكر الأصولي وإشكالية السلطة العلمية في الإسلام –دار المنتخب العربي ، توزيع المؤسسة العربية للدراسات والنشر ببيروت –ط1 -994-354

[4] المرجع السابق ص 358

ويتعرض الجويني لشرط الإمامة ، فينتقد شرط القرشية عند الماوردي والبديل للقرشية هو شرط الكفاية [1] (نظر أخلاقي محض)

ويتحدث – وهذا موقف أخلاقي أيضاً – عن وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لإغاثة كل مظلوم [2] .

ويدلل بنقطة جوهرية ، وهي أنه عند شغور الزمان يجب أن تنحل السلطة الدينية إلى جانب السلطة للسياسية ...واضطلاع الأمة بضبط الأمور ورعاية المصالح ، وهنا لا بد من نخل الشريعة واعتماد قاعدة شريفة يسير عليها الناس [3]

ويقرر الجويني أنه لا قطع في السياسات إلا في الإجماع الذي هو قريب من العرف ، ومظان هذه القطيعة تكمن في مقاصد الشريعة [4]

ويحدد الجويني الإطار السياسي الاقتصادي الاجتماعي لفساد الزمان وعموم البلوى وضرورة التقلب في العيش ، ويستخلص من كل ذلك أن الحاجات أصبحت ضرورات [5].

وإذا سرنا قليلاً بمحاذاة الخط البياني الذي يرسم مسار أخلاقنا ، وجدنا أمامنا أبا القاسم الحسين بن محمد بن الفضل المعروف بالراغب الاصفهاني ، فقد ألف كتاباً في الأخلاق اسماه الذريعة إلى مكارم الشريعة ، الغاية منه إضفاء الطابع الإسلامي على علم الأخلاق المتداول في عصره وهو يوناني إنساني في مضمونه محاولاً إثبات أن السعادة هي سعادة الآخرة (أسلمة الأخلاق)[6].

---

[1] غياث الأمم فقرة 440

[2] غياث الأمم فقرة 441

[3] غياث الأمم فقرة 645

[4] غياث الأمم فقرة 303

[5] غياث الأمم فقرة 422

[6] تحقيق أبو اليزيد العجمي – دار الوفاء للطباعة والنشر – مصر – المنصورة -987

سنكتفي بالتعليق على هذا الكتاب بأن الإسلام هو الإسلام ، وأن القرآن هو القرآن وأن الناقة هي الناقة ، ولن تصبح طائراً مهما أضفينا عليها من مساحيق ورهانات ، والأخلاق الإسلامية هي الأخلاق الإسلامية عندما تكون في موضوعها وماءها إسلامية .

أما الآن فنحن مع أبي حامد الغزالي في كتابيه اللذين ألفهما في الأخلاق ، وهما ميزان العمل وإحياء علوم الدين .

ويمكن القول إن تأثير الغزالي لا يستهان به على الإطلاق إذ لم يكن إطلاق حجة الإسلام عليه أمراً عبثاً ، فإن الثقل الذي كان له منذ بداية القرن السادس الهجري على أفئدة المسلمين بين علماء أهل السنة وعامتهم لا يعادله ثقل أي مفكر أو عالم آخر في الإسلام ، لكن الغزالي لم يمثل في نهاية الأمر على أرض الواقع التاريخي والاجتماعي في الإسلام إلا تطويراً –كان انحرافاً في واقع الأمر – لفكرة ألمح إليها الماوردي ومارسها عملياً فريق من الزهاد والمتصوفة ، هي الجنوح بالحياة الدنيا نحو الآخرة تتخطى ما تضمنته الحقيقة –الوحي [1].

أما كتابه إحياء علوم الدين فهو إعلان لموت الاختلاف وسد باب الاجتهاد في ميادين هي أصلا مجال طبيعي للاختلاف [2]

وإذا كان لكل منظومة أو ظاهره أو نسق من فكره أساس ، أو فكره مفتاح: Nolion-kley ، فلنا أن نتساءل عن هذه الفكرة المفتاح في الأخلاق ؟؟

بعد أن دحضنا مشروع المحاسبي والغزالي والراغب الاصفهاني في محاولة أسلمة أخلاق الغير لأن تكون من الداخل لا من الخارج .

مرة ثانية نقول ما هي القيمة المركزية في منظومة الأخلاق الإسلامية ؟؟

[1] د . فهمي جدعان : أسس التقدم ص 51

[2] د . الجابري : العقل الأخلاقي العربي ص 594

في الحقيقة عندما تكلمنا عن النية بانت لنا أهميتها في كل واجب أخلاقي ، ولكننا عدنا فأكدنا أن العمل يأتي مصدقاً للنية ، وهكذا يمكننا الجزم بأن النية القيمة شرط لازم لكن غير كاف ، وأن العمل هو التاج الذي يزين المفرق والجبين .

يتأكد قولنا هذا من عبارة : آمنوا وعملوا الصالحات التي تتكرر كثيراً في النسيج القرآن ي ، بحيث إن الإيمان يضاف إليه العمل الصالح لينتج التقوى التي هي محور القيم الإسلامية[1].

هل نستطيع القول إن كثيراً من المؤلفات الفكرية في الأخلاق الإسلامية ضلت طريقها لأنها لا تؤسس على فكرة العمل الصالح ، وأن أول وأهم من قام بهذا التأسيس هو أبو محمد عز الدين بن عبد السلام الشافعي المعروف بالعز الذي ولد في دمشق عام 577 هـ (توفي عام 660هـ)

لقد أعرض المذكور عن محاولات الجمع بين الموروث الأخلاقي الإسلامي والموروثات الوافدة سواء ما اتخذ منها طابع الدمج بين الموروث الفارسي والعربي والإسلامي ، كما فعل العامري ومسكويه والماوردي [2] ، أو ما جاء في صورة أسلمة الأخلاق اليونانية ، كما فعل الراغب الاصفهاني .

لقد أعرض العز إعراضاً كاملاً عن هذه المحاولات وأهملها تماماً ، بل وأحدث قطيعة جذرية ونهائية معها [3].

والغاية من الأخلاق عند (العز) هي الفكرة الإسلامية المعبر عنها في القرآن بـ (العمل الصالح) ، وفي الأدبيات الفقهية جلب المصالح ودرء المفاسد [4] .

أجل رغم التدهور الفكري فإن سلطان العلماء (العز) أبرز – كأخلاقي وفقيه – في كتابه قواعد الأحكام في مصالح الأنام ، تجريداً نظرياً ساعده على التعليل والتقعيد والتأصيل ، ومن

---

[1] د. الجابري : العقل الأخلاقي العربي ص 594

[2] نعارض في إدراج الماوردي بين هؤلاء والرأي للدكتور الجابري وقد عرضنا لثقل المروءة في منظومته .

[3] د. الجابري : المرجع السابق ص 596

[4] المرجع السابق ص 597

ثم بذل جهد واضح في ضبط المصلحة الشرعية معللاً قواعدها الكلية وثوابتها ومتغيراتها مستنداً إلى القول بثوابت الشريعة في وجوب جلب المصالح ودرء المفاسد [1].

منوهين بأن ابن تيمية جاء بعد (المعز) ليكمل مشروعه في كتاب السياسة الشرعية ، وليبني هذا الكتاب على فكرة المصلحة التي اعتمدها ابن عبد السلام [2]

وجاء ابن رشد ليشيد مشروعه على خطى المشروع الإنساني لابن الهيثم – كما سنرى – وعلى خطى مشروع العز بن عبد السلام (أخلاق العمل الصالح) ، متحرراً من هيمنة القيم الكسروية ، حيث فهم الإحسان الذي يأمر به القرآن على أنه الفعل الحسن الذي يحقق اللذة المشروعة للنفس والبدن والعمل الصالح الذي ينفع الناس [3]

وأنه لمؤسف حقاً أن القيم الأخلاقية الفردية والاجتماعية والسياسية المنتمية إلى الموروث الفارسي واليوناني هي التي احتلت الساحة الثقافية العربية الإسلامية ليس فقط لدى كتاب السلاطين وفقهائهم ، بل أيضاً لدى المؤلفين في الآداب والأخبار ، كما لدى الفلاسفة ومن والاهم ونحا نحوهم .

لقد تكرس الاستبداد والاتكالية والانعزالية التي تنتمي أصلاً إلى مرجعيات غير عربية أو إسلامية [4] ، وقد عرضنا سابقاً إلى فكرة الانعزال في الفكر والقيم الإسلامية كما عرضنا الآيات القرآنية والأحاديث النبوية التي تعرضت لذلك .

لقد كرست الثقافة الكسروية دولة الفتنة الكبرى بذريعة اتقاء الفتنة ، ولكن إذا كانت الدراسات قد ربطت أخلاق المروءة – العمل الصالح [5]، فهذا الربط بين النوعين من الأخلاق

---

[1] دار الكتب العلمية ج1 ص 4

[2] المرجع السابق ص 619

[3] المرجع السابق ص630

[4] المرجع السابق ص594وراجع في ذلك عبد المجيد الصغير الفكر الأصولي 348 وما بعدها وص443 وما بعدها

[5] المرجع السابق ص 594

لا يزال في وجدان الأمة وضميرها ، وما فتئ السيف الإسلامي يمتشق من الغمد العربي ، وما توانى أو فتئ وجداننا العام ينشد الشدائد هذا الرابط الحميم .

فالعرب ساهموا مساهمة فعالة في بناء دعائم المشروع الإسلامي ، وقد استشهدنا بالمقولة الدالة بأن الحقبة الممتدة من غار حراء حتى صفين هي الحقبة التي أسست فيها الدعائم الأساسية للدين ، ولعلنا نذكر على سبيل المثال بالصحيفة التي أسست أصول ومعالم الفكر السياسي على عهد النبوة والتي هي أول دستور سياسي وأخلاقي في الحياة الإنسانية وأول إعلان أرضي بحقوق الإنسان [1].

فالعرب هم القوى الفاعلة والحامل التاريخي الذي أخذوا على عاتقهم ترسيخ دعائم الحجر الأساس في هذا الدين .

والدخول في الإسلام يعني تعلم العربية (العربية جزء ماهية القرآن) ، والإسلام قاعدة الثقافة العربية ، والثقافة العربية التي اكتملت في كنف الإسلام هي ربيبة الإسلام والذي تربى على ثقافة الإسلام ، كان عليه أن يتربى على الثقافة العربية باعتبارها جذر الثقافة العربية الإسلامية ، وهذا ما عناه البيروني في قوله :

خير لي أن أشتم بالعربية من أن أمدح بالفارسية

وحين سأل أبو جعفر المنصور مولى هشام بن عبد الملك عن هويته قال : إن كانت العربية لسانا فقد نطقنا بها ، وإن كانت ديناً فقد دخلنا فيه [2]

كان الولاء يحمل معنى الإسلام والعربية في آن واحد ، وكان غير المسلمين يرون من دخل الإسلام صار عربياً [3].

---

[1] راجع كتابنا الموسوم بعنوان : الصحيفة – الميثاق – أول دستور لحقوق الإنسان ، دمشق ، دار معد ، دار النمير 996،ط1

[2] . عبد العزيز الدوري : التكوين التاريخي للأمة العربية ص 51

[3] وقد جاء في الحديث : الولاء لحمة كلحمة النسب : وانظر مثلاً الخلاف حول نسب إبراهيم النخعي في ابن سعد كتاب الطبقات الكبير ج1 ص 178 والمبرد للكامل ج3 ص 1284

واستطراداً ومهما يذهب بنا الركوب على متن الشطط والمغالاة فلا نقول إن الإسلام موجة أرضية من موجات الجزيرة العربية ، فذلك إنكار للظاهرة القرآنية وليّ لطبيعتها ، وبذلك نقول إن الإسلام كظاهرة سماوية جاء وعياً مطابقاً لواقع العرب وروحهم ، والله يعلم أين يضع رسالته .

(فالإسلام يعكس النفس العربية ، وهو معينها الروحي الذي لا ينضب ومن واجبنا أن نتلقاه غير منتزع من بيئته العربية الصافية ، وغير ممتزج بالمحيط العالمي الخيالي ، ولا يكبل بقيود الصوفية الرمزية أو مثقل بأوزار الكهنوتية الجامدة [1].

وحسبنا الإلماح إلى الأخلاق العربية في الجاهلية ، وقد أشرنا باقتضاب إلى ذلك الدور الذي لعبته هذه الأخلاق في تقديمها الأرض الصالحة للإسلام ، قال تعالى : (أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَكِينٍ) (المرسلات: 20- 21)

ولعلنا ضربنا مثلاً عن تلك الأخلاق أن جاهلياً ملحداً أعطى رسول الله ﷺ الأمانة والحماية عندما عاد من رحلته – مستضعفاً – إلى الطائف لدعوة أهلها إلى الإسلام .

هل سمعنا بتاريخ العرب أن رجلاً يعطي الدنية أو الكلمة ، ويتراجع عنها كما لاحظنا في تحليلنا لنظرية الأخلاق أن هذه النظرية من المتانة بصورة لا أحد يستطيع أن يشادها ويجد ثغرة في بنائها .

لكن هذه النظرية تقوم أيضاً على العقل والضمير والأخلاق والإحساس والمنطق وطبائع الأشياء والعادات وأخلاق الأمة ، فهل توفر ذلك في عرب الجاهلية ؟؟

هذا هو موضوع بحثنا في دراسة المروءة العربية باعتبارها قيمة مركزية في الأخلاق العربية ، وإن كنا سنكمل دراستنا للنظرية الأخلاقية الإسلامية بدراسة حركيتها ونازلتها الفقهية التاريخية

[1] عبد الرحمن البزار : القومية العربية والإسلام محاضرة ألقيت ببغداد سنة 1952 منشورة في كتابه روح الإسلام ط1 مطبعة العاني بغداد 1955

الاجتماعية ، بل في صراع العلم والدين مع السلطة (جدلية سلطة حريه أو جدلية علم /سلطة) ، وبالتالي رصد حركة الموقعين عن رب العالمين في صراعهم مع الموقعين عن السلاطين

تقويم وتقدير هذا البحث

تحدث رسول الله ﷺ مع عمه العباس ، قال: يا عماه عبارة بسيطة تعطونيها أكفل لكم السيطرة على إيوان كسرى .

وكانت هذه العبارة أعطاها العرب للإسلام ، فأعطاهم العزة والكرامة ودروب الحياة ومفاتيحها.

ولا عجب إذن أن تبرز أهمية علم الفقه كحارس لهذه الأمة ، وكضالة تصل بها إلى غايتها ومبتغاها .

وتتجلى أهمية هذا العلم إذا قورن بعلم كعلم الفلسفة الذي بقي متخلفاً محصوراً على فئة من الخاصة ، بينما علم الفقه تغلغل في صفوف الجماهير ليمس شغاف قلبهم وسويداء ضميرهم . وباعتبار الفقه تقنية الشريعة فلا مجال للسؤال عن جانبه الأخلاقي لا سيما أن الأخلاق بسطت رداءها على كامل رقعة هذه الشريعة .

ولا شك أن العلم – أي علم – يصعد مرقاة السمو في مقاربته للأخلاق واعتناقه لها ، ولطالما أسس على محض العدل والدعائم العقلية المنطقية وعلى طبائع الأشياء ، كما حددناه وبسطناه في مقدمة هذا الكتاب .

هكذا يدلل ابن تيمية بموافقة صريح المعقول لصحيح المنقول [1]، وبالتالي فان أية سياسة عقلية أصابت العدل فلا بد من قبولها شرعاً [2].

[1] عبد المجيد الصغير : الفكر الأصولي : المرجع السابق ص 618

[2] القول لابن قيم الجوزية ، انظر المرجع السابق ص 619

لقد ارتقى علم أصول الفقه في تطوره التاريخي المديد فاستوى على أسس خلقية وعقلية ومنطقية مستشرفاً معاني الحياة وقيمها ومعناها وشرفها وبهجتها .

وإذا كان هذا العلم قد عانق الأخلاق ، فتلك استجابة للأمور المركوزة فيه ولطبائع الأشياء في الشريعة الإسلامية ، وهذا ما جعله موضع نقد كبير من المفكرين الغربيين [1]

وهذا النقد أمر طبيعي لأن النظرة القانونية عند الغرب تختلف في جذورها وبنيتها عما هو عند العرب والمسلمين ، فقد انخلعت نهائيا عن الأخلاق على ما هو معهود في الجذر الروماني.

مثل واحد نسوقه كشاهد على مقولتنا ، ويتمثل في مماطلة المدين ، فقد كانت هذه النظرية تستوفي الحق من جسم المدين بينما القرآن الكريم يقول : (وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ وَأَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ) (البقرة:280)

ومن جهة أخرى فإذا كان علماء الأصول يستشرفون بطموحهم مكارم الأخلاق ، فليس صحيحاً أن هذه الأخيرة تمثل جوهر الخطاب الفقهي ما دامت لا تحتل في الحقيقة إلا الدرجة الأخيرة في سلم مقاصد الشريعة ، ألا وهي المقاصد التحسينية التي يجمعها القول بمقارنة الأخلاق [2] والتي تعني الأخذ بما يليق من محاسن العادات [3]، وهي مقاصد متأخرة في الترتيب عن المقاصد الحاجية والضرورية .

وهذا المضمون المركب لطبيعة الخطاب الفقهي أتاح لعلماء الأصول التكيف بهذا العلم مع مستجدات الواقع الاجتماعي .

ماذا بالنسبة لدور علم الأصول في راهنيتنا ؟؟

---

[1] انظر هذه الرؤية النقدية للنظريات السياسية الفقهية كإنتاج أخلاقي في مضمونه عند هاملتون جيب : دراسات في حضارة الإسلام ص 18-202-261-266

[2] عبد المجيد الصغير : الفكر الأصولي ص 627

[3] الشاطبي : الواقعات ، ج2، ص 11

يمكن القول إنه ليس المقصود في واقعنا تطبيق السياسة النبوية حرفياً ولا سياسة السلف الصالح ، وإنما المقصود الالتزام ما أمكن "بسياسة شرعية " ، وهو مصطلح يتضمن مراعاة الواقع ممتلئاً بكل أبعاده مع محاولة تشذيبه ودفعه قدر الإمكان إلى مراعاة المقاصد الشرعية العامة ، وبذلك صار المطلوب جعل واقع سياسي أقرب إلى الشرع وإلى مقاصده ، وإن لم يكن هو الواقع النموذجي بعينه .

غير أننا نعتقد أن المنخرط في السياسة داخل وسطها الطبيعي ، وهو الجمهور العريض من الناس لا بد له أنه واجد نفسه في مستوى القيم والمبادئ الأخلاقية مادام العمل السياسي هو أيضا دعوة تبغي إقناع الآخر ، وتلجأ إلى نفس أساليب الحجاج المتداولة في الخطاب الشرعي وعلى مستوى الجمهور [1].

لقد انتهى ابن خلدون منطلقاً من واقع عصره إلى إناطة مقاصد الشريعة بالدولة السلطانية المالكة للعصبة الغالبة يدل ترك المقاصد بين أيدي العلماء وفي دفات مصنفاتهم ، وفي رأيه أن تلك الدولة قد صارت من أهم الأمور للألفة على الحماية والقيام بالمصالح ، فاعتبرت فيها العصبية التي هي سر الوازع على الفرقة والتخاذل ومنشأ الاجتماع والتوافق الكفيل بمقاصد الشريعة وأحكامها [2].

لن نطيل الحديث في هذا الموضوع خشية ركوبنا متن الشطط والخروج عن القضية ، ولكني اذكر – وهذا قول موجه للسلطة الحاكمة العربية – بقوله ﷺ : لكل ذي مصلحة مقال

وتأسيساً على ذلك فالشعب العربي أصبح ممتلئاً ، ولم يعد خاوياً لا يملك يقينه وشعوره وثقته بنفسه وتشوفاته ورنوه للمستقبل ، وفي الوقت نفسه – وهذا كلام موجه للشعب – لا

[1] طه عبد الرحمن : في أصول الحوار وتجديد علم الكلام ص 163 الدار البيضاء ، المؤسسة الحديثة للتوزيع والنشر ط1 ، 997

[2] ابن خلدون : المعز ص 287

نستطيع القول برأي الجويني حول انحلال السلطة السياسية والعلمية والمناداة بشغور الزمان وخلوه .

والحل في نظري الحوار والديموقراطية ولعبة شطرنج تاريخية بين أحجار السلطة وأحجار الحرية ، وليتنافس المتنافسون ودع الزهور تتفتح ولنتبار وهذا هو رنين صوت الأخلاق .

الفرع الثامن

جدلية السياسي والديني (والأخلاقي)

في التجربة العربية الإسلامية

(مسألة الصراع بين الموقعين عن رب العالمين والموقعين عن السلاطين)

ومسألة أخلاق الفقيه

أبرزنا ظاهرة أن الإسلام ينجز العربية مثلما أن العروبة الحية تنشئ الإسلام (عروبة الإسلام وإسلام العروبة) ، واستشهدنا بالرأي القائل : إن من كان له أبوأن في الإسلام : فهو عربي ، كما أكدنا مقولة إن فكرة الانفصام بين العروبة والإسلام نشأت بين أحضان الفرس والترك والسلاجقة والبويهيين ، وإن العرب إذا كانوا قد مثلوا حكماً حياً فإنما كان في كنف الإسلام .

زد على ذلك فالشعوب غير العربية قبلوا أخوة العرب وحملوا راية الإسلام إلى جانب راية العروبة ، فهذه الحركة التاريخية الاجتماعية السياسية ، إنما قامت على حب العرب كملزومة ونتيجة طبيعية لحب الإسلام (الموالي)

إذن كل نزعة أو اتجاه نشأ ضمن أحضان الإسلام كانت تمثل حاملاً تاريخياً اجتماعياً بشرياً يدلل ويعانق هذه النزعة .

هل نستطيع القول والتدليل بحامل للشريعة الإسلامية أعطاها صدقيتها وسعى لإرسائها وقدرتها على التحقق على الأرض كما أعطاها العرب .

هذا ما نسعى إليه في هذا البحث ، مدللين بذلك الفقيه العضوي [1] الذي لم يقبل فحسب بالإسلام ، وإنما دافع عن قيمه وأخلاقه ولو احتاج الأمر الوقوف في وجه السلطة .

أجل كان أمامنا حامل تاريخي لأخلاق الطاعة تمثل في رجل السلطان المسلم يساعده في ذلك كتاب الدواوين ومثقفو الكلام ، وكذلك كان لدينا حامل اجتماعي تاريخي لأخلاق الإسلام ورافدها أخلاق المروءة ، فمن هو هذا الحامل التاريخي المثقف العضوي الذي رفض أخلاق الطاعة والذي التفت حوله الجماهير لأنها وجدت فيه ضالتها في احتضان الإسلام الحق كما العروبة الحقة .

لنضع بين يدي القارئ على سبيل المثال ظاهرة التمسك بقرشية الخلافة والقوى التاريخية التي دافعت عنها والفقهاء الذين نادوا بها (راجع الأحكام السلطانية للماوردي) ، ولنا أيضاً بظاهرة الخليفة كرمز لوحدة المسلمين ، وكيف أن العرب تمسكوا بهذه الظاهرة حتى مجيء الحكم التركي ، ومحاولة مماليك مصر (الظاهر بيبرس) إحياؤها بتأييد من القوى العربية ، ولنأخذ مثلاً بلاط حلب على عهد الحمدانيين ومقارنته ببلاط السامانيين والطاهريين لنجد مدى نشر الفارسية في البلاطين المذكورين ، ثم لتأخذ النزعات القومية بين ظهراني الفرس والتي لا نجد مقابلاً لها عند العرب .

والخلاصة : لقد كان هنالك صراع بين الموقعين عن رب العالمين وبين الموقعين عن السلاطين ، وإن المحنة الكبرى في التجربة التاريخية العربية الإسلامية ، محكومة بهذا الصراع ، وأن كل ما حدث ويحدث من حراك اجتماعي في نهاية المطاف مقدم بآلية هذه الجدلية [2].

---

[1] قارنا ذلك بالمثقف العضوي وهو جهاز مفاهيمي نشأ حديثاً في الفكر الاشتراكي على يد غرامش الإيطالي ثم انتشر في الأدبيات الثورية .

[2] جدلية السياسي والديني في الإسلام ، مجلة الاجتهاد العدد 13 سنة 4 ص 246

وإذا ما تابعنا الحفر في طبقات هذه الجدلية ليس فقط في اركيولوجيا تاريخنا ، بل في التجربة البشرية أمكننا القول إن هذه الجدلية هي الأهم في مغامرة الروح الإنسانية في اجتراحها أوجه التقدم والازدهار .

وتبدو الأهمية الخاصة لهذه الجدلية على أرض أمتنا لا سيما أن الإسلام هو حضارة المنطقة وقدرها ، وهو النابض التاريخي الذي يضبط ايقاع المجتمع وحركته ودوراته الحضارية [1].

ومن جهة أخرى فقد لعب العدو دوره في الحيلولة بين الإسلام وبين أن يلعب دوره الناظم والموجه ، وهذا ما أدى إلى انفكاك حركة التاريخ عن حركة المجتمع ، فانقسم المجتمع على ذاته ، وبذلك فليس غريباً أن يحدث الانفلات الدستوري تبعاً لحدوث الانفلات الحقيقي والتاريخي وعدم أداء الدولة دورها التاريخي والحضاري بانقلابها على المجتمع [2].

وفي هذا الصدد نذكر بقول دوبولان : الدولة حضارة بأسرها ، وقد استجمعت قواها ، وأفصحت عن نفسها في مؤسسات [3].

واستناداً إلى ذلك فلا يجوز أن يحمل السياسي العربي إلا على الحضاري العربي الإسلامي والقول بغير ذلك يعني الفوت والموت ، كما يعني أننا حيال بناء سياسي متهالك يقوم على شفا جرف هار سرعان ما يتهدم تجاه أية صدمة .

إن السياسة هي تقنية لعلم الاجتماع بقدر ما إن علم الفيزياء هو علم الظواهر الطبيعية ، وبقدر ما أن السياسة هي الإبرة المغناطيسية التي تتحرك بالساحة المغناطيسية التي هي ظواهر المجتمع ، وهي حقيقة أكدها المفكر العربي (العروي) بقوله : إن الدستور الضمني للحياة هو أساس الدستور الشكلي .

---

[1] مقاله الموسوم بعنوان : بحث في جدلية السياسي والديني في الإسلام ، مجلة الاجتهاد ، بيروت 13 السنة 4 ص246 .

[2] وليد نويهض : جدلية إشكالية الدولة العربية المعاصرة ، مجلة الاجتهاد العدد 14 السنة 4 ص 214

[3] المرجع السابق ص 214

وإذا كان التماس السياسة في الايدولوجيا ، والتماس الايدولوجيا في الدين ، والتماس الدين في الفيزياء الاجتماعية على حد رأي موريس دويريه ، إذا كان الأمر كذلك فعلى السياسة العربية أن تتلمس بذورها وجذورها في مشتل حركة المجتمع الذي تصدر عنه القيم الإسلامية ، ومن جهة أخرى فهذه القيم تشكل النواة النووية في عالم الرأسمال الرمزي لأمتنا.

وانطلاقاً من هذا الرأسمال الرمزي الحي والمتجدد فإن تنظيم عناصر سيمفونية ومنظومته القيمية يعتبر الإيقاع الذي يحرك المجتمع .

ويمكن التأكيد بان الإشكالية لا تكمن في قيام الدين في المجتمع ، بقدر ما تكمن في تسييس المتعالي أو التعالي بالسياسة ، وفي ذلك يؤكد الدكتور برهان غليون أن ارتباط الدين بالسياسة لا يمثل خطراً على الدين أو السياسة ، لكن الخطر يكون في تحويل الدين إلى ممارسة مقدسة [1].

وحقيقة الأمر أن التناقض المنطقي بين الديني والسياسي لم يكن مرده التأمل الفلسفي أو التحليل المنطقي بقدر ما هي رؤية مشدودة إلى تداعيات الاجتماع السياسي ، بمعنى أن هذا النزاع يفهم ويفسر في دائرة الواقع الاجتماعي ، باعتبار أن المسألة الدينية جزء من المسألة السياسية ، وبالتالي فان الوعي بالمزيد من هذا الصراع لا نجده في النصوص ، بل في التجربة التاريخية الاجتماعية باعتبارها مستودع هذا الوعي [2]، وهو الأمر الذي نجده واضحاً في أمتنا إذ أن موقع المؤسسة الدينية الإسلامية من السلطة السياسية كان دائماً على عكس الرؤية الدينية من الرؤية السياسية [3].

---

[1] مقالة الموسوم بعنوان الدين والدولة – مجلة الاجتهاد عدد 15 و16 لعام 992 ص 463

[2] المرجع السابق ص 464

[3] الفضل شلق مقال موسوم بعنوان : حول الوعي التاريخي مجلة الاجتهاد عدد 24 سنة 6 عام 994 ص 6

ذلك أن المؤسسة الدينية الإسلامية تكونت بمعزل عن الدولة وعن تضاريسها [1] ، وقد تخلقت وتثبتت في كنف الأمة ، بل كانت هاجس السلطة السياسية لا سيما فيما يتعلق بامتلاك النص الأساسي المؤسس للمجتمع والدولة (القرآن والسنة النبوية) ، هذا النص الذي يضبط كل سلطة معرفية أو سياسية [2]

ذاك أن الدين في الإسلام (أسٌّ) حسب قول الغزالي ، وفضلاً عن ذلك فالسياسة هي حراسة الدين وسياسة الدنيا بالدين .

ويمكن القول إن مبدأ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هو مبدأ الإبداع والحركة في الإسلام إذ يسمح لكل فرد التصدي للدفاع عن حقوق الله القائمة على فرض الكفاية مع التنويه بأن حقوق الله تتلبس كافة الحقوق في الإسلام حسب البلورات التي حققها الشاطبي في رائعته (الموافقات) .

ذلك أنه كل طرق المعرفة في الإسلام يؤدي إلى السياسة [3]، ومن هنا نشأ في أدبياتنا الثقافية التراثية تعبير (علوم الملة) ، أي تلك العلوم التي تعتبر جزءاً لا تتجزأ من هوية الأمة ، وهي علوم قد بلورت من قبل السلطة العلمية ، وأصبحت جزءاً لا يتجزأ من وجدان الأمة وضميرها الجمعي ، وفي الوقت نفسه ، فالسلطة المعرفية انبرت للقول بأن لها سيادتها على تلك العلوم باعتبار الموضوع عملاً معرفياً علمياً وجديراً بأن يؤسس تلك السيادة .

وحقيقة الأمر فالسياسة هي التأثير بالغير سواء عن طريق العلم أم غيره ، أي سواء أتعلق الأمر برجل السلطة الفعلية أم بصاحب المعرفة العلمية ، فكل منهما يملك سلطة وقدرة ونفوذ في التأثير ، وهذا هو مغزى قول الفخر الرازي (السياسة رئاسة) ، وعلم السياسة هو

---

[1] المرجع السابق ص 9

[2] عبد المجيد الصغير – الفكر الأصولي ص 195

[3] عبد المجيد الصغير : الفكر الأصولي ص 9

علم الرئاسة ، ومن ذا الذي ينزع عن الفيلسوف أو العالم رئاسته للوظيفة الفكرية وقيامه على مصالح الجماعة [1]

وقريب من ذلك يميز ابن خلدون بين الملك القائم على الغلب وبين الرياسة القائمة على السؤدد والحلال والحسب والشرف [2].

ومن هنا ظهر في الأدبيات السياسية تعبير النفوذ الذي هو الوجه الثاني للقوة السياسية ، ويعني قدرة الشخص أو الجماعة على فرض آرائها على الآخرين من خلال التفاعل واستخدام مختلف أساليب الإقناع أو الإكراه [3]

على هذا الأساس لا يمكن غض النظر أو التغافل عن هذا التداخل بين المعرفي والسياسي في الإسلام ، ما دام هذا الأخير يقوم على كتاب يعتبر الدليل الأول ، والأصل المطلق الذي تتأسس عليه كافة الأحكام ، والمرجع المعياري الأول لما ينبغي أن يضبط به مجتمع الناس ، الأمر الذي يجعل من المواقف والخلافات السياسية مواقف وخلافات تحيل إلى مشاكل اجتماعية وسياسية ، بالقدر نفسه الذي تحيل إلى قضايا ومفاهيم معرفية شديدة الاتصال بالقيم وبالثقافة التي أسسها ذلك الكتاب ورسختها السنة قولاً وتجربة .

وهذا التأثير الديني ليس مستمداً من الواقع فحسب ، بل هنالك أكثر من نص يؤسس هذه السيادة والمشروعية أو النفوذ لرجل الدين ، من ذلك ما رواه سيدنا علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : إنها ستكون فتنة قلت وما المخرج منها يا رسول الله ، قال : كتاب الله عز وجل فيه نبأ ما كان قبلكم وخبر ما بعدكم وحكم ما بينكم ، هو الفصل ليس بالهزل من تركه من جبار قصمه الله ، ومن ابتغى الهدى من غيره أذله الله ، هو الذي لا تزيغ

---

[1] المرجع السابق ص 9

[2] المقدمة دار القلم – بيروت -986 ص 134

[3] ناجي صادق شراب : السياسة (دراسة سوسيولوجية) ط1 -984 مكتبة الإمارات ص 98 وانظر د .محمود اسماعيل محمد : دراسات في العلوم السياسية – مكتبة الإمارات ، العين ط2 ، 984 ص 19

به الأهواء ، ولا تشبع منه العلماء ، من قال به صدق ، ومن عمل به أجر ، ومن حكم به عدل [1] .

وليلاحظ القارئ أن هذا الحديث يقتضي تقابلاً بين مفهومين الحكم والفصل الحق بين الناس من جهة وبين مفهوم الجبروت ، ومن ثم تصبح مفاهيم الهدى والصراط والأهواء ليست مجرد معان دينية بالمعنى الضيق للكلمة ، بل هي مفاهيم محملة بدلالات سياسية واضحة تدفع رجل العلم إلى الربط بين الكتاب أو العلم وبين السياسة ، وبالتالي تفسح المجال لأن يعطي لنفسه حق الاشتغال بالسياسة ، أو على الأقل حق التدبير فيها ونقد خيارات رجل السلطة ومالك السيف [2].

ذلك أن هذا الحديث ورد في مناسبة يطغى عليها البعد السياسي ، إنها الحديث عن الفتنة ، هذا المصطلح الإسلامي الأصيل الذي يشير غالباً بأصابع الاتهام إلى رجل السيف ، ومناوراته السياسية فيأتي نص الحديث ليرسم المخرج والوقاية من تلك الفتنة ، محدداً وسيلتها الوحيدة ، ألا وهي الكتاب المؤسس للأمة ، هذا الكتاب الذي يفخر رجل العلم بأنه الأقرب إليه من رجل السيف [3] .

هذا التناقض بين ما هو سياسي وما هو ديني نجده في حديث آخر للرسول ﷺ يقول فيه : ألا إن القرآن والسلطان سيفترقان ، فلا تفارقوا الكتاب [4].

ذلك أن هناك اختلاف في الطبيعة والجوهر بين الوظيفة الدينية والوظيفة السياسية ، فالأولى تستشرف لتكتشف ما يجب أن يكون ، في حين أن الثانية تجهد النفس للحفاظ على ما هو كائن ، وبذلك فالآلية الأولى الإيمان بالأهداف ، ضماناً لحق إبداء الرأي وبذل الوسع في

---

[1] روى الحديث : المحاسبي في العقل وفهم القران ، دار الكندي – دار الفكر – بيروت – ط2 1978 ص286

[2] عبد المجيد الصغير : الفكر الأصولي ص 11

[3] عبد المجيد الصغير : الفكر الأصولي ص 152

[4] المرجع السابق ص 16

الاجتهاد ومراعاة لتغيير الأحكام بتغيير الأزمنة والأمكنة والعوائد والأحوال حسب تعبير ابن القيم الجوزية ، وهو ما يعني إحجام العالم عن فرض رأيه واجتهاده على من يعتقد أنه وإياهم سواء ، وهذا هو مغزى رفض الإمام مالك طلب الخليفة المنصور بأن يفرض كتابه الموطأ على رقاب الناس [1]

وفضلاً عن ذلك فرجل الفقه أو الدين تحدوه دوافع روحية ، وهو ما عبر عنه الشافعي بقوله: إما أن اتبع كتاب الله أو كتاب الدواوين .

والأمر على خلافه بالنسبة للسلطة التي كثيرا ما يحدوها الامتلاك لكل شيء حتى الماء والهواء على حد تعبير ابن المقفع وامتلاك العقول إلى جانب الأجساد [2]

ولعلنا نجد هذا التناقض على أرض العقل والواقع فيما أثر عن عبد الملك بن مروان أنه لما ولي الخلافة أخذ المصحف ووضعه في حجره وقال : هذا فراق بيني وبينك [3].

وحقيقة الأمر أن هذا الفقيه كان يدرك الأهمية التي يتبؤها في ضمير المجتمع ، وبطبيعة الحال فأهمية هذا الموقع تنبثق من أهمية المعرفة والقيم التي يتعامل معها ويعانقها في قلب المجتمع ألا وهي الشريعة ، وفي ذلك يقول الجويني : المرموق من يحيط بشرف هذا الكلام ونميزه من كلام بني الزمان [4]

وللسبب نفسه يقول أبو الأسود الدؤلي : الملك حكام على الرعية ، والفقهاء حكام على الملوك .

ومن هذا المنظور يقول : شاخت : إن الشريعة الإسلامية هي أبرز مظاهر أسلوب الحياة الإسلامية ، فهي لب الإسلام ولبابه [5] .

---

[1] المرجع السابق ص 71

[2] ؟؟؟؟

[3] الطرطوشي :شرح الملوك ص 60

[4] كتابه غياث الأمم فقرة 776

[5] يوسف شاخت : الشريعة الإسلامية عالم المعرفة ، الكويت 978 القسم الثالث ترجمة حسن مؤنس وإحسان العمر ص 9

هذه الأهمية للشريعة في شفاف قلب المجتمع الإسلامي أبرزت الدور الهام للفقيه ، الأمر الذي مكنه في حال صحوة الأمة وحيوتها من منافسة السلطان على فضاء سلطته ، الفضاء الذي يحتله الجمهور ، وقد وصل أمر بالفقيه أحياناً على تهديد السلطان بجمهوره الذي يحكمه [1].

هكذا نفهم تهديد ابن خليل الحنبلي للوزير السلطاني عميد الدولة ابن جهير وقوله له : لا تلمنا على ملازمة البيوت والاختفاء عن العوام لأنهم إن سألونا لم نقل إلا ما يقتضي الإعظام لهذه القبائح والإنكار لها والنياحة على الشريعة [2]

وهذا هو مغزى قول السلطان الظاهر بيبرس حين شاهد كثرة الخلق في جنازة سلطان العلماء العز بن عبد السلام : اليوم استقر أمري في الملك لأن هذا الشيخ لو كان يقول للناس اخرجوا عليه لانتزع الملك مني [3].

زد على ذلك بأن موت الجويني لم يكن أقل دلالة من موت ابن عبد السلام ، فقد اشترك العامة كلها بنيسابور في الحزن عليه ، ولم تفتح هذه البلدة ، ورفعت المناديل على الرؤوس عاماً كاملاً ، بحيث ما اجترأ أحد على ستر رأسه .

وتحكي الموارد التاريخية أن الشافعي جاء المدينة من أجل أن يقدمه إلى الإمام مالك فأجاب الوالي : أن أمشي إلى مكة حافياً أهون علي من المشي إلى باب مالك ، فلست أرى الذل إلا على بابه [4].

فحتمية الصراع إذن قائمة لا سيما أن الفقيه ما فتئ يلح على ملء الساحة والتحدث باسم الأمة ، وبأنه الأكثر وقاء لممارسة هذا الدور ، وبالتالي فإذا كان هنالك من الفقهاء من تكلم

---

[1] القاضي أبو يعلى الأحكام السلطانية ص 297

[2] المرجع السابق ص 5

[3] الشافعية الكبرى جزء 5 ص 80

[4] عبد المجيد الصغير : الفكر الأصولي ص 221

باسم السلطان فهنالك من تكلم باسم رب العالمين ، وهذا هو مفاد كتاب ابن القيم الموسوم بعنوان " اعلام الموقعين عن رب العالمين " .

على هذا الأساس كانت تداعيات طبائع الأشياء أن يحدث الصراع بين الموقعين عن رب العالمين وبين السلطة على أخص شيء من مستلزمات السلطان ، ألا وهي الطاعة التي هي جوهر السلطة السياسية ، تلك الطاعة التي تحتاج إلى بيان العالم لها وضبطه لأحكامها ، وبالتالي فإن من يطلع بمهمة التوضيح والتبيين والتشريع - وهو الفقيه العالم – يستوجب في الدين موضع الإمامة [1]

هكذا انبرى الشافعي للقول : ليس لأحد أن يقول في شيء حلاً ولا حرماً إلا من وجهة العلم [2]

وهذه السلطة التي تبوأها الفقيه لم تقتصر على تحديد مفهوم الطاعة ، بل تعدتها إلى أجهزة مفاهيمة أخرى مثل البيان والعلم والحكمة والحق والإجماع والاختلاف والنهي والأمر والواجب والفرض والاستحسان والتشريع والإمامة والأمير وأولي الأمر والولاة والحكام [3].

وهذا الدور السياسي لم يقتصر على الفقيه بل تعداه إلى عالم الكلام (الفقه الأكبر) الذي نشأ في الأساس نشأة سياسية للدفاع عن العقائد الإيمانية بالأدلة العقلية [4].

وحقيقة الأمر إذا تصفحنا الإطار المرجعي المجتمعي لنشأة هذا العلم وجدناه في مكة والمدينة والكوفة والبصرة ، وهي المكان التي ضمت المعارضة على بني أمية ، حيث نشأت مدرسة المدينة على يد محمد بن علي بن أبي طالب ، ونشأت مدرسة البصرة برئاسة الحسن البصري وذلك كتعويض وبديل سياسي على المستوى النظري والمعرفي [5] ، وإن نظرة بسيطة على

---

[1] آدم ميتز : تاريخ الحضارة العربية في القرن الرابع ج1 ص 216

[2] الشافعي : الرسالة الفقرة 161

[3] وقد نقل ذلك عن طبقات الشافعية الكبرى

[4] مقدمة ابن خلدون (الفصل العاشر) ص 821 وانظر عبد المجيد الصغير –الفكر الأصولي ص 5 وما بعدها

[5] عبد المجيد الصغير –الفكر الأصولي ص 49

المفاهيم والمصطلحات المتداولة من قبل رواد المدرستين تؤيد الحمولة السياسية لهذه المفاهيم ، والتي رسخها التيار الاعتزالي ، ومن هذه المفاهيم : الخروج – الخلافة – أئمة الجور –سفك الدماء – أخذ الأموال – الملوك – الجبر – ، وهي مفاهيم ترد على فكر السلطة وخصوصا الفكر الجبري وغيره [1].

وإذا تابعنا التحري والحفر في الفكر المعتزلي ومقارنة ذلك مع الفكر الأشعري ، أدركنا هذا البعد السياسي لعلم الكلام المعتزلي لا سيما فيما يتعلق بالتكليف العقلي القائم على المقاصد والمصالح والغايات .كل ذلك لترسيخ مبدأ الاختيار خلافاً للأشعرية التي أقامت التكليف على المشيئة الإلهية ليس إلا [2].

والخلاصة أن الموقف الكلامي لم يكن كلاماً في اللاهوت بقدر ما كان في السياسة ، وإذا كان هذا هو شأن الفقيه أو عالم الكلام فالأمر لا يختلف بالنسبة للمتصوف الذي بذل وسعه لتأسيس قاعدة شرعية في احتواء الفقيه نفسه بل سائر علوم الملة .

من جماع ما تقدم فكافة الطرق كانت ممهدة للصدام ثم لاحتواء رجل السلطة لرجل العلم ، والأمر على خلافه بالنسبة للفقيه الذي كان حريصاً على طاعة السلطان في حدود الشريعة ، وهذا ما تؤكده نصيحة ابن حنبل لتلامذته - وهو في السجن – بأن لا يخرجوا عن الطاعة السياسية ، بل إن خلافه مع السلطان احتدم حول الأسس العقيدية الخارجة عن ولاية السلطان .

ولقد تعددت وسائل وأساليب الاضطهاد الديني ، والفظائع التي ارتكبت من قبل رجل السلطة بحق رجل العلم تثير الاستغراب ، ويكفينا أن نرجع في ذلك إلى الكتاب الذي صنفه بهذا الشأن الفقيه أبو العرب التميمي .

---

[1] عبد المجيد الصغير –الفكر الأصولي ص 50

[2] عبد المجيد الصغير –الفكر الأصولي ص 54

ولعل ما أوقعه الخليفة يزيد بن معاوية في مجتمع المدينة يوم الحرة كافٍ للدلالة على تصميم هذا المجتمع على الرفض والمقاومة بقدر ما يدل على بطش والي المدينة وهتك أعراض نسائها وقطع رؤوس الصحابة مقابل جوائز عالية ، كما فعل والي الأمويين الحجاج بن يوسف الثقفي يوم معركة الجماجم بأنصار عبد الرحمن بن الأشعث ، وهم من القراء وكبار التابعين —سارت بذكره الركبان [1].

ولعل قتل معاوية بن أبي سفيان الزاهد حجر بن عدي له أكبر دليل على ذلك ، رغم أن المذكور كان مشهوراً باعتزاله الفتن ، لكن معاوية أدرك عدم حياد العلم وقوله لعائشة أم المؤمنين : قتل واحد خير من قتل مائة ألف[2] .

ماذا بالنسبة للقاضي ؟؟

على الرغم من اعتراض الماوردي على تبعية القاضي للإمام بسبب تولية الثاني للأول ، فالقاضي في نظر الماوردي : يملك من الاستقلال ما يجعله حاكماً على الإمام نفسه ، لأن القاضي مستناب في حقوق المسلمين لا في حقوق الإمام .

هكذا دارت رحى صراع حاد بين السلطة السياسية والسلطة العلمية على ساحة القضاء ، وتطالعنا الموارد التاريخية بأكثر من مرة رفض بها رجل العلم الوظيفة القضائية هرباً من وجه السلطان .

يكفينا أن نحيل إلى كتاب أبو عبد الله الخشني القيرواني (61هـ) ، فقد تضمن كتابه (قضاة قرطبة) باباً وسمه بعنوان (باب من عرض عليه القضاء فأبى) [3].

ونجد من الفقهاء من تمادى في الرفض والنفور ، بينما اضطر آخر للهروب بنفسه في حين هدد ثالث بتطليق زوجته ، هذا عدا أسلوب التهديد والإغراء .

---

[1] عبد المجيد الصغير : الفكر الأصولي – ص 48

[2] كتاب المحن لأبي يعرب ص 116

[3] أبو عبد الله : قضاة قرطبة ، الدار المعربة للتأليف والنشر 969 باب 1 ص 2

ويرى صاحب كتاب المحن أن الخليفة أبا جعفر المنصور سقى بيده الإمام أبا حنيفة السم فمات [1] .

ولقد هرب أحدهم من وجه الحجاج رافضاً القضاء ، ورمى نفسه في نهر الفرات فاتبعه رجال الحجاج وقبضوا عليه وصلبوه .

ولم تعدم وجود أدبيات تقول أن العلماء في زمرة الأنبياء والقضاة في زمرة السلاطين .

لقد ألح الخليفة القائم بأمر الله على أبي يعلى الفراء (58 هـ) أن يتولى منصب القضاء فاشترط المذكور إلا يحضر أيام المواكب ولا يخرج في استقبالات الخليفة ، ولا يقصد دار السلطان ، وأن يستخلف من ينوب عنه [2].

لقد بلغ نفوذ القضاة في الدولة العباسية أن الوالي – ومنذ القرن الثالث للهجرة – أصبح يحضر مجلس القاضي كل صباح[3].

ولقد بلغ من نفوذ أبي حامد الاسقرابيني قاضي بغداد (406 هـ) أنه صار يهدد الخليفة بالجمهور قائلاً له : اعلم أنك لست بقادر على عزلي من ولايتي التي ولانيها الله ، وأنا قادر أن أكتب إلى أهل خراسان بكلمتين لعزلك [4]

لقد أتضح لنا أن رجل العلم يملك سلطة فعالة ومؤثرة تعطيه الحق بان يكون المقرر لأحكام السياسة حتى لا يخرج رجل السياسة عن مقاصد الشريعة حسب تعبير العز بن عبد السلام ، أو حسب تعبير القاضي ابن العربي بأن يكون الأمر كله يرجع إلى العلماء [5].

هكذا كان لا بد أن يبتدأ رجل السياسة مع رجل العلم بالحيلة والاستدراج وهو ما عبر عنه السبكي بقوله : كم رأينا فقيهاً تردد على أبواب الملوك ، فذهب فقهه ، ونسي ما كان يعلمه وكان فساداً عظيماً وفيه هلاك العالم [1].

---

[1] عبد المجيد الصغير : الفكر الأصولي ص 224

[2] القاضي أبو يعلى : كتابه الأحكام السلطانية ص 67

[3] عبد المجيد الصغير : الفكر الأصولي ص 225

[4] آدم متيز ، المرجع السابق ص 382

[5] عبد المجيد الصغير : الفكر الأصولي ص 15

ولم يدخر رجل السلطة وسيلة إلا واستخدمها لسلب قوة رجل العلم ولعل أبرز تلك الوسائل السيف والمال .

لذلك وجدنا رجل السلطة يلجأ إلى أساليب وإجراءات أقرب ما تكون بالمجال الحيواني ، إذ عمد إلى دمغ جسد الذين لم يؤيدوه ، كما فعل الحجاج مع الصحابي المشهور رجاء بن عبد الله الذي رفض السلام على الحجاج ، فكان ذلك مبرراً لدمغه .

وفضلاً عن ذلك فقد بعث الحجاج إلى الصحابي سهل قائلاً : ما لك لا تنصر أمير المؤمنين فقال : قد فعلت ، قال : قد كذبت فعلّم في عنقه ، كما علم على يد حسن البصري وعمر بن سيرين وأنس بن مالك [2].

ولم يكن امتلاك الأجساد الوسيلة الوحيدة فقد تعد ذلك إلى امتلاك الأفكار ، هكذا ظهرت الآداب السلطانية وأدب الديوان ومرايا الملوك مقابل أدب القاضي [3].

وبطبيعة الحال فالجامع لكل ذلك محاولة التبرير لمرايا الملوك وترسيخ الآداب السلطانية سواء تمثلت في أعمال أدبية كالعقد الفريد لابن عبد ربه وكتاب الإمتاع والمؤانسة لأبي حيان التوحيدي ومسائل حجة الإسلام للغزالي أم برزت في أعمال مستقلة مثل سراج الملوك للطرطوشي والفخر في الآداب السلطانية لابن الطقطقي علاوة على مساهمات الماوردي في الأحكام السلطانية وكتاب الوزراء والكتاب للجهشياري وكتاب رسالة الصحابة لابن المقفع [4].

لهذا لم يكن غريباً أن تبرز مفاهيم سياسية غريبة على الحياة العربية فها هو ابن المقفع يقول: إن بإمكان الخليفة أن يملك الماء والهواء ، وإنه لو أمر أن تستدبر الكعبة في الصلاة لفعل ذلك وأن تسير الجبال لسارت [5].

---

[1] عبد المجيد الصغير : الفكر الأصولي ص 15

[2] كتاب المحن ص 428

[3] عبد المجيد الصغير : الفكر الأصولي ص 31

[4] عبد المجيد الصغير : الفكر الأصولي ص 31

[5] رسالة الصحابة لابن المقفع ، بيروت ، دار التوفيق ص 978 ص 195

وإذا كان لرجل القلم الحق في التكيف بعد أن ضعف سنده (الجمهور) ، وتلاؤم مع الظروف المستجدة ، فهذا ما نجده مثلاً عند الجويني في الأمور الحاجية التي تنزل منزلة الأمور الضرورية ، وفضلاً عن ذلك فإذا وجدنا بعض المحاولات الإنقاذية من قبل رجل العلم مثل مشروع الجويني في كتابه غياث الأمم ، حيث أكد شغور زمانه وخلوه من السلطة العلمية (الفقهية) ، ومن السلطة السياسية ، خلافاً لحال امتلاء الزمان في العصر الراشدي ، وهذا ما دفعه للتنظير لهذه المرحلة ، بطرح ترسانة الفقه الضخمة ، واستبدال ذلك بأحكام بسيطة وقليلة ومنطقية ، ثم ربط مسؤولية هذه المرحلة بالجمهور .

لكن أنى لأية وسيلة إنقاذية أن توقف التدهور ، وقد طال ليل الكرب وفاض دمع الأسى واسود وجه الزمان وعم البلاء الأركان ولا مغيث يرجوه الغريق ولا حيلة لأحد من الخلق مع ما نزل بهم من البؤس [1] .

هذا الانهيار الاجتماعي والتاريخي أدى إلى تغييرات جذرية في مفاهيمنا وأدبياتنا السياسية ، فها هو الباقلاني يتكلم على البيعة التي اكتفى بها على أن تقوم على شخص واحد ، وها هي الشورى تصبح غير ملزمة ، وها هو الفقه يضفي المشروعية على إمارة التغلب ، وها هو مبدأ الطاعة يتحرر من كل قيد ، ويصبح مفهوم عدم الطاعة يوازي الكفر ، وها هو مبدأ الأمر بالمعروف ينقلب إلى مجرد النصيحة [2]، وها هو أدبنا السياسي يطالعنا بمفهوم المستبد العادل ، وها هو الخليفة أبي جعفر المنصور يصبح ظل الله على الأرض ، وها هو معاوية بن أبي سفيان يزعم بأنه قفل الله على أمواله ، وها هو ابن الطقطقي يبرر مجازر هولاكو حاملاً ذلك على مقولة أن السلطان الكافر خير من المسلم الظالم [3].

---

[1] ابن أبي محلى : كتابه الأصليت

[2] عبد المجيد الصغير : الفكر الأصولي ، ص 342

[3] عبد المجيد الصغير : الفكر الأصولي ، ص 330

وهكذا تحول علم الفقه إلى مجرد علم في الأحوال الشخصية والعبادات ، بعد أن كان يكتب بأقلام الموقعين عن رب العالمين .

فكتاب الرسالة للشافعي هو تقنين لسلوك رجل السلطة ، حيث ابتدأ ببيان اسماه البيان لضبط المفاهيم السياسية ، وكأننا أمام قاموس للفكر السياسي ، وكذا مشروع الجويني الإنقاذي ، في كتابه غياث الأمم ، هذا عدا عن مشروع الشاطبي في كتابه (الموافقات) ، حيث أكد الكثيرون على هذا الحبل السري الذي يربطه بالشافعي والجويني [1] .

هل نقول إن الانتصار كان لأخلاق الطاعة ، أو نؤكد قول ماسينيون بأن الدولة الإسلامية دولة ثيوقراطية علمانية مساواتية [2] .

وباختصار لم تستطع حضارتنا في العصر الوسيط أن تؤسس ذلك المشروع الحضاري الذي هو مؤسسة في خدمة فكرة نابعة من الشعب على ضوء الشريعة وأحكامها ، وهنا كان التخبط ومحنة الأخلاق ومأزقها .

بقيت كلمة حية يجب قولها وهي أن الديموقراطية في الغرب استوت وتصويت بها كفاعل إجرائي (صندوق الاقتراع) ، في حين أننا تكلمنا كثيراً عن إسناد السلطة وممارستها ، لكننا لم نهتد إلى هذا الفاعل الإجرائي المفتاح الحي NOTION – KLEY

ونعتقد أنه لا يمكن إزالة التعارض بين سلطتي القلم والسياسة إلا بهذا المفتاح الذي يرقى بنا إلى مستوى المشروع الحضاري العمراني التاريخي .

إن المجال الراهن ينطوي على رهانات كبرى تتعلق بتغيير نظرتنا إلى الإسلام ، أي بإعادة موقعه في المجتمع العربي ، كما تتعلق بإعادة تفسير أو ترتيب القيم التي تشكل حقيقته الكبرى ، لكن

---

[1] السابق ص 443

[2] مقال فرتيز .شتبان : الإسلام والسلطة ، مجلة الاجتهاد عدد 12 سنة 3 ، 991 ص 69

هذا لا يمكن تحقيقه إلا إذا اقترن الإسلام بدوره وفعاليته وفائدته أي أن يطمئن إلى وجوده وحقيقته على أرض العرب [1]

إن المجتمع العربي لن يستطيع أن ينجح في بناء نفسه وتحقيق استقراره النفسي والثقافي ضد الإسلام أو خارج الإسلام أو حتى دون الإسلام ، وبالمقابل فإنه من غير الممكن والمتوقع أن يقوم بهذه المهمة دون أن ينفتح على العالم ، وضمن هذا الترتيب للموقع العربي وللموقع الإسلامي ، فلا مناص من أن تتحدد العلاقة بين العروبة والإسلام تحديداً دقيقاً ، بحث لا نعتمد قطباً دون الآخر ، ونقصيه أو نسقطه من الحساب ، بل نضعه في موضعه من المنظومة ، لقد بنينا حضارتنا على هذا التكامل التاريخي بين العروبة والإسلام ، فهل يعيد التاريخ نفسه ، وهل لا تزال مبرراته قائمة وملحة ؟

الفصل الثاني

تمهيد

نظم القيم في حضارتنا العربية الإسلامية

ومسألة الأخلاقيات في التجربة العربية الإسلامية

" مسألة أخلاق الذوات والنوابت "

والملاحظ أننا وسمنا هذا البحث بعنوان (نظم القيم) لأن الأنساق القيمية تعددت في حضارتنا ، ومن جهة ثانية يصح التساؤل عما إذا بقيت هذه القيم منفصلة عن بعضها لم تتعانق تعانق وفاق واشتراك ، بما في ذلك نظام القيم الإسلامي الخالص بالإضافة إلى الموروث العربي الخالص ، مع أن هنالك محاولات على إضفاء السمة الإسلامية على الموروث الفارسي الخالص وعلى الموروث اليوناني المحض .

[1] د. برهان غليون – مقالة –السالف الذكر– الدين والدولة – مجلة الاجتهاد عدد 15 و16 لعام 992 ص40

إذن هنالك ضرورة ملحة لعرض الأنساق والموروثات ، وفي الوقت نفسه التساؤل عن أهميتها ، أي هل لعبت دور الانكفاء بالأصالة وجذبتها إلى الوراء ، ثم نقفي ونعقب ذلك بدراسة هذه النظم ، وهل بقيت في إطار الحقل السياسي والثقافي العالم لا الشعبي ، على أن نتساءل أيضاً عما إذا بقيت هذه الأنساق نوابت وذؤاناً أم تغلغلت وجدان الأمة وضميرها وهاجسها وأريجها الروحي وزفيرها المقموع .

نخلص من ذلك إلى نتيجة هامة ، وهي هل نرتب ونصنف دراسة هذه الأنساق حسب قربها من وجدان الأمة وضميرها أم تبعاً لتدوين حركة التراث .

نعيد ما سبق قوله والتأكيد عليه بأن المنظومة الثقافية قد تكون متعددة العناصر أو قد تبرز وتتصدر إحداها ، فتكون هي القائدة التي تضفي على المجموعة الثقافية التماسك والاتساق ، ونسمي هذه الثقافة ، ثقافة اللباب [1]، في حين قد تتحرك على ساحة وبساط وعي الأمة ثقافات مجلوبة ، لا سيما إذا كانت التجربة الثقافية ثرة وغنية ومسماح .

والسؤال المطروح هو : هل إن أية ثقافة مجلوبة تعرج وتنفذ إلى مملكة النظام العام الثقافي ، فتدخل موشور وجدان الأمة وضميرها .

لا ريب أنه حدثت شقوق وفتوق في العقل السياسي العربي الإسلامي ، فدخل فيه ما دخل من الثقافات ، وإن أول درس في السياسة تلقاه هذا العقل من خلال هذه الفتوق كان على يد معاوية بن أبي سفيان حامل السيف لا القلم ، الذي طير ابنه يزيد في الهواء رأس كل من لم يبايعه .

أما الدرس الثاني الذي تلقاه العقل السياسي العربي الإسلامي في الأخلاق والسياسة كان عنوانه (الطاعة) ، وكان هذه المرة في مادة الأدب ، ومن سوء الحظ أن الظروف التي حركت ذلك القلم كانت ظروف سيف مفلول نقصد ظروف هزيمة دولة معاوية وعشيرته على يد مروان

[1] د. عدنان أبو عمشة

بن محمد ، حيث برز الجبر والطاعة كعنصرين أساسيين في أخلاق الهزيمة ، وبدأت الدولة الأموية بأولها وانتهت بآخرها [1].

ولعل أهم الوسائل التي اعتمدها البيت الأموي في تكريس هذه الطاعة هي :

1- فن الترسل : وهو من أهم الوسائل التي لجأ إليها بنو أمية في نشر القيم التي تهمهم ، إذ كانت رسائل الخليفة تقرأ في المساجد والساحات العامة .

وإذا كان موضوع الرسالة إصدار أمر لا يحتاج أكثر من بضع جمل ، فإن الترسل هو صياغة ذلك الأمر في نص بلاغي ترصف به الجمل والعبارات صفاً ، فتتزاحم بتزاحم قيمة الاستشهاد بالقرآن والحديث وغيرهما في قوالب لغوية يراد لها أن تقوم مقام التبرير الديني والبرهان العقلي .

وكما كانت القيم الدينية [2] والأخلاقية وسيلة يلجأ إليها الحاكم فقد لجأ فن الترسل - مستعيناً بالبلاغة - إلى أخلاق تختلف تماماً عن أخلاق البداوة ، أخلاق المساواة والتواضع التي سادت زمن الخلفاء الراشدين وزمن معاوية حتى زمن عبد الملك بن مروان فقد كان مطلق الناس يخاطب الخليفة كواحد من منظومة (يا أيها الناس) ، لكنه دخل مع رسالة عبد الحميد الكاتب مفهوم جديد هو جعل الناس والأخلاق في صنفين العامة والخاصة [3].

لقد حدد الدكتور الجابري تاريخ انتقال الموروث الفارسي إلى الحضارة العربية ، وذلك في عصر الخليفة الأموي هشام بن عبد الملك ، والأغلب ترجمه هذه الثقافة المجلوبة (ثقافة الطاعة) على يد عبد الله بن المقفع ، حيث ترجم النصوص التي كانت في خزائن الملك أزدشير ، وكانت تتعلق بالآداب السلطانية والبروتوكول والسياسة والأخلاق [4] .

---

[1] د. الجابري : العقل الأخلاقي العربي ص 149

[2] د. الجابري : العقل الأخلاقي العربي ص 149

[3] د. الجابري : العقل الأخلاقي العربي ص 135

[4] د. الجابري : العقل الأخلاقي العربي ص 146

لكن لماذا لم يتعرض الدكتور الجابري للمجتمع بما فيه من قوى فاعلة ، من ذلك الأصناف ونظام الفتوة والعيارين والحركات الشعبية ...الخ ، وعلى رأس ذلك منظومة الفقه التي كانت العقبة الكأداء في وجه السلطة ، مشيرين إلى أن الدكتور أسهب في عرض منظومة الكتاب ورجال الدواوين والدور الذي لعبوه في تعميق وتكريس أخلاق الطاعة .

هذا ولنعد قليلاً إلى العنوان الذي وسمنا به البحث (الأخلاقيات في التجربة العربية الإسلامية) ، فهذه الكلمة (أخلاقية) : Moralite أكثر ما تتردد في الآداب القانونية ، ويقصد بها تلك الأخلاق التي بلغت من الصلابة والانتشار في الشغاف الشعبي ، الأمر الذي يؤدي انتهاكها والمساس بها إلى رد فعلي هذا الوجدان .

وبالمقابل تطلق كلمة :morales على كل قاعدة أخلاقية ، صغيرة أم كبيرة ، مهما علت أو انخفضت في سلم الاعتبار [1]

وإذا أردنا نقل هذا المفهوم التاريخي لتوظيفه في الأدبيات الاجتماعية والسياسية والتاريخية (لما يوظف بعد) ، فلا نجد أخلاقاً تتوفر بها هذه السمات سوى الأخلاق الإسلامية ورافدها وحليفها التاريخي ألا وهي أخلاق المروءة (العربية) .

ومن جهة أخرى فإنني أرفض أن يكون رأيي هذا توظيفاً أيدلوجياً ، بل معرفياً خالصاً ، ، وإنني استخدم هنا معياراً قانونياً هو سعة الانتشار في الظاهرة ، واعتناقها من قبل الوجدان العام ، وفي ذلك يقول الفقيه ريفيرو : يجب إطاعة الشعور المنتشر ولو كان مزيفاً :diffue واستناداً إلى هذا المعيار ، فقد قمت بتصنيف مادة هذا الكتاب حسب اتسامها بسمة الانتشار ، وليس حسب تاريخ تدوين المادة في التاريخ العربي الإسلامي ، فتاريخ التدوين كاشف ومعلن ، وليس بمنشئ [2]

---

[1] يراجع في تحديد المعنى القانوني للأخلاقية د. محمد عصفورية الضبط الإداري ، القاهرة ، جامعة القاهرة ، كلية الحقوق – الدراسات العليا 967 ص 76

[2] د. الجابري : العقل الأخلاقي العربي والتصنيف لديه حسب تدوين الأخلاق في التاريخ العربي الإسلامي

فالأخلاق الإسلامية قد تتميز من الأخلاق العربية (أخلاق المروءة) ، ولكنها لا تنفصل عنها انفصال الغربة والخروج ، كما هو الأمر بالنسبة للأب وابنه ، والإسلام هو ذلك الأب ، وكلاهما ينتمي إلى أصل واحد هو الأصل الذي تأسس عليه إسلام ابراهيم ، ثم إسلام محمد ، وبالتالي نكون حيال اختلاف لا خلاف ، في حين أطلقنا كلمة نوابت على الأخلاق الأخرى للإشارة إلى هذا الخلاف والانفصال والانقطاع .

أليس القول بالاتحاد مع الله أو بسقوط تكاليف الشيخ عند الصوفية ، هذا القول خروج على الجوهر الإسلامي ، ومن جهة أخرى هل هنالك مبرر لقبول أخلاقيات ازدشير أم أفلاطون ، ثم نبرر هذا الخروج ، أليس ذلك خروج على الهوية على النظام العام الخلقي ، لكنني أستطيع أن أتحلى بمروءة العرب لأن رسول الله ﷺ قال : " من لا مروءة له لا دين له".

انطلاقا من هذه الرؤية ، وعلى هذا الأساس سيكون تعريجنا وبحثنا للأخلاق الآتية :

المبحث الأول : أخلاق المروءة

- مقدمة –

ظل العرب زمناً طويلا ، وهم أنضر أهل الدنيا حضارة وأذكاهم فكراً وأشرفهم سيرة وسريرة [1].

وامتد الشحوب والنضوب إلى الحضارة الإسلامية التي أخذت بالجفاف والفتور تبعا لنضوب الخلق الإسلامية .

فالثابت الذي لا ريب ولا لجاج فيه أن القرآن الكريم نزل بلغة العرب ، لكنه نزل أيضاً بأخلاقهم وصفائهم الروحية العليا .

فالعربي النصراني مسلم بصفاته العربية ، والمسلم الهندي أو الفارسي عربي بما في الإسلام من روح العرب [1] .

[1] محمد الغزالي : حقيقة القومية العربية ، دار العروبة ، القاهرة ص 207

والرابطة التي تربط العروبة بالإسلام رابطة طبيعية كالرابطة بين نظام الأجرام السماوية وقوة الجاذبية [2].

وأي قران يترجم إلى لسان آخر هو قرآن على المجاز لا على الحقيقة ، أما القرآن نفسه أصل الإسلام ومعجزة نبيه وسياج دعوته ، فإن الأسلوب العربي بخصائصه الثابتة جزء لا ينفصل عن جوهره .

ومقتضى هذا أن العرب أدنى الناس إلى فقه الرسالة ، وإدراك مراميها ، وذلك هو معنى الآية: (وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ حُكْماً عَرَبِيّا)(الرعد: من الآية37) ، سواء أكان الحكم بمعنى الحكمة أو السلطة [3].

فالإسلام انتشر بدعائم عربية [4]، وهو قائم وحي وممتلئ ما دام العرب أقوياء وممتلئين ، العرب في الجاهلية كانوا يرون أنفسهم أقوم أفكاراً وأعصى على الضيم وأنأى عن الدنية ، وأقدر على عظائم الأمور ونبل الأمجاد ، قال تعالى : (وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ، أَنْ تَقُولُوا إِنَّمَا أُنْزِلَ الْكِتَابُ عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا وَإِنْ كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ ، أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَى مِنْهُمْ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدىً وَرَحْمَةٌ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَّبَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا سَنَجْزِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ) (الأنعام: 155 ، 156 ، 157)

وقوله تعالى : (وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَيَكُونُنَّ أَهْدَى مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُوراً) (فاطر:42)

---

[1] محمد الغزالي : المرجع السابق ص 200

[2] المرجع السابق ص 20

[3] المرجع السابق ص 11

[4] المرجع السابق ص 12

فهذه الآيات واضحة الدلالة على أن العرب كانوا يعتبرون كفتهم أرجح في ميزان المواهب والملكات من اليهود والنصارى والمجوس ، أو بتعبير آخر من الفرس والروم .

ويصور الجاحظ نظرة العرب إلى أنفسهم فيقول : للعرب من صدق الحس وصواب الحدس وجودة النظر وصحة الرأي ما لا يعرف لغيرهم ، ولهم العزم الذي لا يشبهه عزم ، والصبر الذي لا يشبهه صبر والجود والأنفة والحمية التي لا يدانيهم أحد فيها ، وفيهم خصلة لا تصاب إلا بهم ، وذلك أن سفلة كل حبل وغفلة كل صنف إذا اشتد تشاجرهم ، وطالت ملاهاتهم وكثر مزاحهم وشاعت الدعابة بينهم ، وجدتهم يخرجون إلى ذكر الحرمات وشتيمة الأمهات واللفظ السيئ وللسفه الفاحش ، ولست بسامع من هذا حرفاً في البادية ، لا من صغيرهم ولا من كبيرهم ولا جاهلهم ولا عالمهم ، وليس في الأرض صبيان في عقول الرجال غير صبيانهم ، وكل شيء تقوله العرب هو سهل عليها أو كطبيعة منها ، وكل شيء تقول العجم فهو تكلف واستكراه [1] .

وقد استجمعوا على عهد البعثة كل الخلال التي تتيح لها رسالة عظمى ، بل إن ما تتطلبه دعوة ضخمة كدعوة الإسلام لم تكن تتوفر في غير هذه الجزيرة التي عبأتها الأقدار بشتى القوى والمواهب [2] .

فلنتحدث عن أهم هذه المرشحات :

المطلب الأول –الناحية النفسية

لقد بلغت قوة الفرد مداها بين العرب ، وشعر كل واحد فيهم أن له من القوة ما يجعله إنسانا يفرض نفسه على ما حوله ، ويأخذ امتداده الكلي في كل ناحية ، وقد جعلهم هذا الشعور أصحاب حساسية شديدة بأنفسهم ، وبما عليهم من واجبات وما لهم من حقوق قال الشاعر :

---

[1] المرجع السابق ص 26

[2] المرجع السابق ص 27

لو كان في الألف منا واحد فدعوا من فارس خالهم إياه يعنونا

وقال آخر :

إذا القوم قالوا من فتى خلت أنني عنيت فلم أكسل ولم أتبلد

وهذه الخصلة تجعل صاحبها رجل صدق ، إذا قال كلمة وقف عندها

والبيئة العربية طبعت أبناءها على إلف الصعاب ، وقلة المبالاة بالشدائد ومواجهة الموت ببسالة ، قال دريد بن الصمة :

أبي الموت إلا آل صمة إنهم أبو عترة والقدر يجري على القدر

فإنا للحم الموت غير نكيره ونلحمه حينا وليس بذي نكر

قسمنا بذاك الدهر شطرين بيننا فما ينقضي شطر إلا ونحن على شطر

وقول شاعر آخر :

شددنا شدة فقتلت منهم ثلاثة فتية وقتلت قينا

وشدوا شدة أخرى فجروا بأرجل مثلهم ورموا جوينا

وكان أخي جوين ذا حفاظ وكان القتل للفتيان زينا

والتضحية بالنفس – كما هو معلوم – مقدمة لنيل السعادة ونبذ الحياة ، قال رسول اللهﷺ: اطلب الموت توهب لك الحياة

وكما كان العربي شجاعاً فقد كان مسماحاً كريماً نبيهاً لاستقبال ضيوفه بنفس طيبة

فقام أبو ضيف كريم كأنه وقد جد من فرض الفكاهة مازح

إلى جذم مال قد نهكنا سوامه وأعراضنا فيه بواق صحائح

فالكرم طبيعة عمت أصقاع العرب :

نصبوا بمندرجة الطريق قدورهم يتسابقون إلى قرى الضيفان

ويكاد موقدهم يجود بنفسه حب القرى حطباً على النيران

والعربي شديد الصبر على الأعراض ، فذلك مفتاح الكرامة .

والنفس العربية تفيض بمعاني القوة والصراحة والصرامة والأنفة ، وهي خصال تؤهل للعجائب والأقدار .

المطلب الثاني - الناحية الاجتماعية

والصفات السابقة حررت المجتمع من الفساد المعقد الذي زخرت به بيئات الخوارج ، فليس في هذا المجتمع الكهنوت الديني ، ولا النظام الإقطاعي ولا الاستبداد .

لقد خلت الجزيرة العربية من الملوك المتوجين ، وكان نظامها السياسي أشبه ما يكون بالقيادات المحلية المنبثق من صميم الشعب .

ولم يكن سيد القبيلة جباراً يهضم الحقوق ، بل كانت القبيلة تحمي كل امرئ فيها ، وتضرب سياجاً منيعاً حول حرماته ، فقد أسميت سلطة القبيلة على أنها اقرب إلى السؤدد (سلطة معنوية قائمة على الشرف والاحترام) [1]

قال الشاعر الجاهلي لقيط بن معمر [2]

فقلدوا أمركم لله دركم رحب الذراع بأمر الحرب مضطلعا

لا مترفاً إن رخي العيش ساعده ولا إذا أحل مكروه به خشعا

لا يطعم النوم إلا حيث يبعثه هم يكاد حشاه يقطع الضلعا

مسهد النوم تعنيه أموركم يروم فيها على الأعداء مطلعا

فالقبيلة تدافع عن الفرد ، وتدفع عنه كل كبيرة ، والمقابل فالفرد يزود عنها كل منكر ونكير.

---

[1] محمد عابد الجابري : العقل الأخلاقي العربي ص 497

[2] د . ظافر القاسمي – نظام الحكم في الشريعة والتاريخ الإسلامي – بيروت – دار النفائس ط5 -984 ص31

وفي هذا المناخ تمت النخوة فالجيرة ، فبنو هاشم رفضوا أن يخلوا بين النبي وبين أعدائه ، وقد قال عمه العباس – وهو كافر – للأنصار : إن محمداً هنا في عزوته ننافح عنه ، فإذا لم يلق مثل هذه الحماية من أهل المدينة فلا معنى لخروجه .

ولقد رأينا أبا لهب – وقد نزل فيه القرآن يلعنه – يعرض على النبي أن يقوم منه مقام أبي طالب بعد وفاته .

وهذه النخوة كفلت لوناً من الحرية السياسية والكرامة الفردية لم نعرفها عصرئذٍ في أي مجتمع آخر ، ولو أن داعية للتوحيد ظهر في ربوع الروم ، أو أقطار الفرس لأصدر كسرى أو قيصر أمراً بضرب عنقه ، ولو أنه نال فرصة الحياة أياماً فاستطاع أن يربى على مكث جيلاً من الرجال الذين رسا اليقين في صدورهم وتلقنوا دروسا في التربية والتشريع .

ولم يعرف بطحاء مكة الكهانة الدينية ، وقد تأبت طباع العرب الخضوع لها ، والأرض الخالية من الأنقاض خير من أرض ملئت بالأعشاب .

كذلك فالنظام الاقتصادي في الجاهلية لم يعهد نظام الإقطاع ، بل إن علاقة السادة بالأتباع كانت أقرب إلى الكرامة الإنسانية ، قال الشاعر : [1]

جفاني الأمير والمغيرة قد جفا وأمسى يزيد بي قد أزور جانبه

وكلهم قد نال شبعاً لبطنه وشبع الفتى لؤم إذا جاع صاحبه

المطلب الثالث

صفاء الفطرة العربية

أبرزنا كيف أن القرآن الكريم قدر نظام الفطرة حق قدره ، واعتبر مكنوناته وكرامته مصدراً ثراً للتشريع

[1] محمد الغزالي : المرجع السابق ص 33

أجل فقد امتاز العربي بحدة الفهم وصفاء الذهن وإحكام التعبير وسرعة الإدراك مع سهولة في العيش وبساطة في البيئة وبعد عن التصنع والمداجاة .

وإنك لتسأل أعرابياً عن معرفته لله فيقول : البعرة تدل إلى البعير والأثر يدل على المسير ، فأرض ذات فجاج وسماء ذات أبراج ، وأفلاك تدل على الخبير البصير .

فهنا منطق السجية والطبع المستقيم الذي تجلت فيه النفس العربية ..

ذلك أن القرآن الكريم جادلهم في شأن ألهتهم التي أشركوها مع الله ، ألها نصيب في الخلق والرزق والتدبير ، فكانت الإجابة ... لا

وقد صور لنا القرآن الكريم ذلك فقال :

(فَذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلالُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ) (يونس:32)

ولو كان عندهم من أصحاب الفلسفات لكانت إجابته مليئة بالأغاليط والعجر والبجر ففلسفة التثليث مثلاً وجدت جماهير من الناس تستسيغها ، ولما كان إقرارها في الذهن العادي صعباً ، فقد أجرت في الذهن الإنساني عدة فتوق حتى يسمح لهذه الفلسفة بالمرور.

والخلاصة أن نفوس العرب أشبه ما تكون بشجرة لم تنضج ، أما الحضارات الأخرى فقد كانت أشبه ما تكون بثمر أصيب بالعفن والبلى .

ونخلص من ذلك للقول بأن الأخلاق الإسلامية لعبت دورها المكين في إنضاج الثمرة العربية، وبالمقابل فالأخلاق العربية هي المشتل الذي أينعت فيه الثمار الإسلامية ، واستمر الأمر إلى أن حدث التدهور .

لقد اختار الله محمداً ليكون عميد الأنبياء وليقدم للعالم أجمع خلاصة الشرائع التي تستطيع العيش مدى الحياة

وهذا الاختيار الذي تهيأت له نفس عظمى ، تهيأت له كذلك أمة تستطيع الحكم بأنها كانت يومئذ أجدر من غيرها بصحبة هذا الرسول والتبليغ عنه وبذلك يشملها قوله تعالى : (اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ) (الأنعام: من الآية124) [1]

وإذا كنا قد أبرزنا دور أخلاق المروءة . فهذه الأخلاق تعبر عن روح الفطرة الإنسانية ، لكن هل بقيت الأخلاق الإسلامية في حدود الفطرة أم تجاوزت ذلك إلى أخلاق التقوى ، وهي رؤية تلف الحياة بكاملها في كل مكان وزمان

وتأسيساً على ما ذكرناه ، فإننا نؤكد ما قلناه سابقاً من أن القرآن الكريم نزل بأخلاق العرب وصفاتهم العليا ، وفي الوقت نفسه نستنكر المقولة المد لله بأن الإسلام نهضة عربية خالصة ، وبالتالي تعد محمداُ ﷺ زعيماً عربياً فحسب لا صلة له بالوحي ، والوجهة السليمة للمسألة هي أن الإسلام دين إنساني الخصائص والوجهة [2] ، وإن كان اختار أرضاً صالحة لبذاره .

وفي الصفحات المقبلة سنحاول حرث أخلاق المروءة والحفر على طبيعتها وخصائصها ومقوماتها ، ثم في بحث آخر سنتكلم عن القوى الاجتماعية التي صدعت بأخلاق المروءة ووقفت إلى جانبها .

الفرع الثاني

المقصود بأخلاق المروءة وطبيعتها ومظاهرها

يتساءل الدكتور محمد عابد الجابري عما إذا كانت هذه القيمة ، قد اكتسبت أهميتها كقيمة مركزية منذ العصر الجاهلي ، أم أن ذلك حدث في العصر الأموي مع انتشار الموروث الفارسي وكرد فعل لهذا الانتشار يقول : إن رواج هذه اللفظة في العصر الأموي راجع إلى أنه كان بعيد عن السلوك النموذجي للأرستقراطية القبلية الأموية [3] .

---

[1] محمد الغزالي : المرجع السابق ص 40

[2] محمد الغزالي : المرجع السابق ص 20

[3] العقل الأخلاقي في العربي ص 493 وص 506

إذن فالمروءة راجت حسب الرأي السابق عند الأرستقراطية الأموية ، ولكنها كانت القيمة المركزية عند العرب في الجاهلية واستمرت عند هذه الأمة بهذه القيمة والأهمية .

قال رسول الله ﷺ : المروءة دين العرب ، وقوله : من لا مروءة له لا دين له .

ولم ينقطع تواصل اعتبار العرب وتقديمهم هذه القيمة على ما سواها من القيم يقول الحكيم صالح بن جناح اللخمي الدمشقي في كتابه الأدب والمروءة : إنما المرء بمروءته ، فالمروءة هي اجتناب المرء ما يشينه واختياره ما يزينه ، وإنه لا مروءة لمن لا أدب له ، ولا أدب لمن لا عقل له ولا عقل لمن كان في عقله ما يغنيه ويكفيه عن غيره لكن لا مروءة بدون أدب ولا أدب بدون مروءة

وذكر أبو حيان التوحيدي السبتي المتوفى سنة 354هـ في كتابه روضة العقلاء ونزهة الفضلاء أن أبا هريرة ذكر حديثاً ورد فيه كرم الرجل دينه ، ومروءته عقله وحسبه خلقه .

فالمروءة ليست مجرد خصلة محمودة ، بل إنما تحصيل المروءة للمرء إذا لزم ما قدر عليه من الخصال المحمودة ، وترك الصفات المذمومة ، إنها جميع مكارم الأخلاق ..

وقد انثال هذا الاحترام للمروءة إلى دعاة النهضة العربية الحديثة ، فها هو الطهطاوي في كتابه مناهج الألباب العصرية في مناهج الآداب المصرية ، يجعل المروءة فضيلة البر ودلائل الكرم والإنفاق وقد وصفها بأنها حلية النفوس وزينة الهمم مستشهداً بحديث نبوي يقول : من عامل الناس فلم يظلمهم وحدثهم فلم يكذبهم ووعدهم فلم يخلفهم فهو كمن كملت مروءته وظهرت عدالته ووجبت أخوته وحرمت غيبته [1].

وقال عنها شيخ الأزهر محمد خضر الحسين بأنها خصلة رفيعة القدر تجري في منشآت الآداب ، ويتحدث عنها في علوم اللغة والشريعة والأدب والأخلاق .

[1] د. الجابري المرجع السابق ص 509

ولقد تكلم عنها أحمد أمين في كتابه فيض الخاطر فقال : إنها اتجاه فكري[1] ، فالمروءة قيمة مركزية في الموروث العربي ، والذهن العربي يجعل منها جماع الخصال المحمودة كلها ويمنع عنها جميع الصفات المذمومة .

فالمروءة إذا نظام للقيم ومنظومة ونسق له ، وبهذا المعنى نسجل الكرم خصلة تأتي في مقدمة جدول هذه المنظومة .

المطلب الأول

الكرم

دخلت هذه القيمة في مقدمة منظومة الاعتبار العربي ، حيث بلور من خلال هذا الاعتبار ومجد شخص حاتم الطائي في قيمة كان بها أريج الذكر والتقدير .

ولا عجب فالكرم يرتبط بالعطاء والتضحية والذوبان في الغير لدرجة أن هذه القيمة ارتبطت بالشرف ، وبالتالي فوصف المروءة بالكرم يعني أنه رجل شريف .

وهكذا قيل أحجار كريمة ، وقيل : كرم النفس –كرم المحتد – قرآن كريم ، قال تعالى : (إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ) (الواقعة : 77- 78)

وفي مورثنا الثقافي يذكر الكرم مقترناً بالمعروف ، والمعروف هو ضد المنكر وهو الجود والكرم .

وتروي المصادر أن النبي سأل قوماً من سيدكم : قالوا الجد من قيس ، على بخل فيه ، قال رسول الله ﷺ : أي داء أدوأ من البخل .

وقال سعيد بن العاص : قبح الله المعروف إن لم يكن ابتداء من غير مسألة ، فالمعروف عوض عن مسألة الرجل ، وهو الكرم والجود أي إعطاء المحتاج قبل أن يسأل ويطلب ، أما المعروف بعد السؤال والطلب فليس كرماً ، بل عوض عن محنة الطلب والسؤال .

[1] المرجع السابق ص 509

وفي هذا المعنى سأل معاوية بن أبي سفيان صعصعة بن سرحان فقال : ما الجود ؟؟ .. قال: المتبرع بالعطية قبل السؤال ، وقد خصص ابن عبد ربه صفحات طوال من كتابه لذكر أجواد الجاهلية وأجواد أهل الإسلام [1].

والعطاء وسيلة لاستمالة القلوب ، والمؤلفة قلوبهم كانت لهم مكانتهم الخاصة في قانون توزيع الغنائم في الإسلام ، قال صفوان بن أمية : لقد غزوت مع رسول الله ﷺ وما خلق الله خلقاً أبغض إلي منه ، فما زال يعطيني حتى ما خلق الله خلقاً أحب إلي منه [2] .

ويفهم من الشعر العربي أن الكرم كان ذاتياً يجد المرء – في قرارة نفسه – لذة لذاتها قال حاتم الطائي :

فنفسك أكرمها فإنك إن تهن عليك فلن تلقى مدى الدهر مكرما

أهن للذي تهوى التلاد فإنه إذا مت كان المال نهبا مقسما [3]

وللكرم وظيفة اجتماعية كالتخفيف من آثار الفقر والجفاف وبرد الشتاء ، فإذا اشتد ذلك على الفقراء عمدوا إلى لعب الميسر بالقداح على جزور ومن ربح منهم جعل أجزاء الجزور طعاماً لذي الحاجة [4]

كتب ثابت بن سنان – وهو أحد أكبر الأطباء العرب في طب الأخلاق – في ضرورة معالجة الأخلاق المذمومة في مستشفى خاص يخصص لذلك ، قال المذكور : الكرم جملة الفضائل والأخلاق المحمودة أو أكثرها ، وليس هو خلقاً واحداً مفرداً إلا إنه لا يعمها عموم الخير للفضائل ، فإنا نجد الناس يسمون السخي كريماً ، ومن كثر عفوه وصفحه عن الجرائم والإساءات به والجنايات عليه يسمونه كريماً ، ومن ظفر بعدوه فصفح عنه قيل كريم الكفين ،

[1] العقد الفريد القاهرة ، 940 مجلد 1 ج 1 ص 154

[2] العقد الفريد القاهرة ، 940 مجلد 1 ج 1 ص 155

[3] عمر دسوقي : الفتوة عند العرب ، دار نهضة مصر ، القاهرة 966 ص 641

[4] المرجع السابق ص 87

وهذا في معنى العفو وقد يسمون الحليم كريماً ، وما رأينا أحداً يسمى الشجاع الذي ليس فيه خلق يوصف بها غير الشجاعة كريماً

فالكرم لا يمكن اعتباره القيمة المركزية التي تنتظم حولها القيم العربية ، فهو له معناه الخاص الذي لا يتعداه إلى الشجاعة ، وفي هذا الصدد نتساءل عن قيمة الفتوة ؟؟

المطلب الثاني

الفتوة

بالرجوع إلى المعاني اللغوية يتبين أن هذه الكلمة تعني الفتاء والشباب والقوة وطلاقة اللسان والقدرة على تحمل المشاق والمهارة في الطعن والفروسية .

وأما الصفات المعنوية للفتوة فتشمل الكرم والوفاء بالعهد والحلم وحماية الضعيف وإغاثة الملهوف والتواضع والعفو وقوة الاحتمال والميل إلى الزعامة والسيادة مع التواضع والكرم والنجدة والتفاني في خدمة الجماعة وسائر الخصائل التي تعبر عن الرجولة .

ومن العبارات المركبة التي تفيد معنى الفتوة في أقوى معناها وأنبل خصالها ، قولهم : هذا فتى الحمى أي سيده والكامل الجزل من رجاله .

وقولهم أيضا : فتى الفتيان وفتى العشيرة [1]

وما يجمع هؤلاء وأمثالهم كونهم نالوا السؤدد والشرف بخلالهم الكريمة وبطولاتهم العظيمة كالإقدام والإيثار إلى مساعدة الغير عند الشدائد .

وكل هذه الخلال – ولا شك – خصال ذاتية ، قال الشاعر :

إن الفتى من يقول ها أنا ذا ليس الفتى من يقول كان أبي

[1] د. الجابري : العقل الأخلاقي العربي ص 515

وأهم ما يميز صاحب الفتوة أنه لا يحتاج إلى حسب أو نسب في وصوله إلى الرئاسة والشرف. قال الشاعر :

قد يدرك الشرف الفتى ورداؤه خلق وجيب قميصه مرقوع

وقد اختصت فتوة الفقراء في الجاهلية باسم الصعلكة يقول أحمد أمين : كان من الجاهلية نوعان من الشباب أبناء الأشراف يجتمعون ويتخذون لهم محلاً مختاراً ويعيشون عيشة إباحية فيها خمر وغناء ونساء ، وهم مع ذلك كرام يضيفون من نزل بهم ويقدمون عليهم من خبزهم ، ومقابل هؤلاء طائفة من أبناء الفقراء يسمون الصعاليك يتصفون بالكرم وحياتهم لم تكن حياة دعه واستمتاع ، بل حياة غزو وسلب ونهب وتوزيع عادل على أمثالهم ، فكان الفتيان يعطون ما يعطون عطفاً وتفضلاً والصعاليك فيعطون أداء لما يرونه واجباً .

ومع ذلك يبقى أساس الصعلكة والفتوة واحداً هو الكرم والنجدة ، فإذا لم تكن النجدة من الصعلوك سمي بليداً خاملاً [1].

ومن الصعاليك عروة بن الورد .وقد سمي عروة الصعاليك والشنفرى وتأبط شراً والسليك بن السلكه ، وقد أثر عن معاوية أنه تمنى أن يصاهر عروة .

يقول أحمد أمين : وتسمى الصعلكة العدائين ، وكانوا مع فقرهم نبلاء لا يهجمون إلا على الأشحاء ، فإذا وجدوا غنياً كريماً تركوه ، فهم لصوص شرفاء ونبلاء ، ومن تكوينهم جمعية من فقراء قومهم يصرفون فيها ما كسبوه من الأغنياء الأشحاء بينهم بالتساوي[2].

ولقد استمرت أخلاق الفتوة في صدر الإسلام خصوصاً في جانبها الايجابي واشتهر الصحابة بألقاب الفتوة لبطولاتهم في الحروب الإسلامية ، فلقب خالد بن الوليد فتى الفتيان وقيل : لا فتى إلا علي .

---

[1] د. الجابري –العقل الأخلاقي العربي ص 517

[2] أحمد أمين : الصعلكة والفتوة في الإسلام ، القاهرة 952 ص 17

وفي العصر الأموي برزت الفتوة وبصورة خاصة في الحيرة وحمص زمن هشام بن عبد الملك ، ويظهر من عبارتهم أنهم من المياسير ، وممن لهم حظ في السماع والشراب ، وكانت لهم مجتمعات خاصة في البادية ، حيث كانوا يتحلون بالفروسية وحب الصيد وتربية الحيوانات المعلمة ، كما أخذوا من الفرس اللعب بالبندق [1].

وفي الكوفة برزت بصفتها مبدأ جماعة محدودة لها طابعها الخاص ولباسها ومثلها وتنظيمها[2].

وفي العصر العباسي تعددت المجالات التي استعمل فيها اسم الفتوة مثل النبل والكرم والشجاعة والفروسية المنظمة ، وفي العصر العباسي الأخير ظهرت فتوة عسكرية (الحروب الصليبية) وعنها انتقلت الفروسية إلى أوروبا ، وفتوة جودية تهتم بالغرباء وأحكامهم والقيام بالأعمال الخيرية .

وكانت الفتوة البغدادية يتناقشون فلسفياً وأخلاقياً وكانت لهم قيم أخلاقية يحترمونها من ذلك أن الفتى لا يزني ولا يكذب ويحفظ الحرم ولا يهتك سر النساء ، وكان للفتيان قاضي: قاضي الفتيان [3] .

وانتقلت الفتوة إلى المتصوفة ، وعملوا لها تنظيماً كالتنظيم الصوفي على قمته (قطب الفتوة) وينسب ظهور الفتوة الصوفية إلى الحسن البصري الذي أطلق عليه سيد الفتيان [4]

والتصوف عبر من مضامين الفتوة العربية بإعطائها اتجاهاً خاصاً ، يقول الأستاذ عمر الدسوقي : والحق إن التصوف الإسلامي أخذ من الفتوة العربية الإسلامية التي من أهم مظاهرها الشجاعة والكرم والإيثار وحماية الضعيف ونكران الذات ، وإن كان قد مسخ الفتوة

---

[1] احمد أمين –المرجع السابق ص 52

[2] كامل مصطفى الشيبي : الصلة بين التشيع والتصوف –القاهرة 969 ص 280

[3] د. الجابري –العقل الأخلاقي العربي ص 516

[4] الشيبي : المرجع السابق ص 499

العربية مسخاً ، ولم تعد ترى صفات الفروسية والكفاح والنضال في سبيل الشرف ، وإنما ترى زهداً وبعداً عن الدنيا وإضعاف الجسم لتقوية الروح [1].

وبصورة عامة أخذوا من مضامين الفتوة العربية بعض الصفات ، وأضافوا إليها مضامين أخرى . يقول القشيري : أصل الفتوة أن يكون العبد أبداً في أمر غيره ، فالفتوة الصفح عن عثرات الأخوان ، وأن لا ترى لنفسك فضلاً على غيرك ، قال الوراق : الفتى من لا خصم له ، وقيل : الفتى من كسر الصنم ، وصنم كل إنسان نفسه ، فمن خالف هواه فهو فتى .

وقيل : الفتوة أن لا يميز أن يأكل عنده ولي أو كافر ، فالفتوة كف الأذى وبذل الندى على عيون الأصدقاء .

ويستعير بعض المتصوفة معاني البطولة في الفتوة عند العرب ، ويتخذ منها قيمة خلقية مثالية ، من ذلك ربطهم الفتوة بمن كانت له دعوى يدافع عنها كالحلاج الذي يقول : أنا الحق سقطت من بساط الفتوة .

ومما يتصل بالفتوة ما يسمونه بـ (الملامة) و الكلمة من اللوم ، والمقصود لوم النفس .ويقال : إن أبا حمدون القصار أحد شيوخ متصوفة نيسابور سنه 271 هـ هو المؤسس لهذا المذهب [2].

على أن الفتوة عرفت تحولاً سلبياً في العصور المتأخرة ، وباتت تعكس الحقد الاجتماعي الطبقي ، فاكتسى سلوكها طابعاً اجتماعياً ، وهكذا بالإضافة إلى انتشار جماعات العيار والشطار ظهرت في بغداد فتوة الناصر لدين الله سنة 604 هـ ، وكانت حركة اجتماعية للطبقة الفقيرة يتصرف أصحابها بعيداً عن أي قانون أخلاقي ، وتحولت هذه الحركة إلى عصابات لنهب الحوانيت وبيوت الأغنياء .

---

[1] الشيبي : المرجع السابق ص 499

[2] د. الجابري –العقل الأخلاقي العربي ص 518

المطلب الثالث

لمن الصدارة (القيمة المركزية) للفتوة أم المروءة

وبصورة عامة فالفتوة هي القيمة المركزية في خلال الشباب ، في حين أن أخلاق المروءة خاصة بالشيوخ ، وإن كان بعضهم يعتبر الفتوة القيمة المركزية ، والمروءة حالة خاصة منها، ومن هؤلاء أبو الريحان البيروتي المتوفى سنة 430هـ ، يقول المذكور : المروءة تقتصر على الرجل في نفسه وذويه ، والفتوة تنفذ إلى غيره ، فالفتوة حكم ورزانة واحتمال وتواضع وبشر مقبول ونائل مبذول وعفاف معروف وأذى مكفوف [1] .

ومنذ الجاهلية حتى اليوم لا يتفرع عنها قيمة سلبية خلافاً للفتوة التي تتفرع عنها الصعلكة والملامتيه كما سبق ذكره ، ونجد مصداق ذلك في قول أبي حيان التوحيدي : المروءة أشد لصوقاً بباطن الإنسان ، أما الفتوة فهي أشد ظهوراً في الإنسان ، وكأن الأولى أخص والثانية (المروءة) اعم ، أي لا فتوة لمن لا مروءة له ، وقد يكون ذو مروءة ولا فتوة له ، فإذا اجتمعا فقد أخذ الحبل من طرفيه [2] .

ويقول صاحب كتاب المروءة الغائبة : إن الآباء كانوا يهتفون للشباب عندما يهتفون للعمل (عاشت المروءة يا شباب) ، ثم يبدي حسرته على ذهاب المروءة ، ويتساءل : أين نحن الآن من تلك السعادة ؟؟ .... سمات أمتنا ، روح وجودنا وسر تقدمنا وعنوان إسلامنا (المروءة) ، وهل لنا من عودة لعل وعيسى ، ومن يدري ؟؟ [3]

وقد أخذت المروءة مظاهر متعددة ، يقول البستي : فأما المروءة في السفر ، فبذل الزاد وقلة الخلاف على الأصحاب وكثرة المزاح في غير مساخط ، وأما مروءة الحضر فالإدمان على المساجد وكثرة الإخوان في الله وقراءة القرآن .

---

[1] البيروني : الجماهر في معرفة الجواهر ، مطبعة حيدر أباد ، الدكن 1355 ص 10

[2] أبو حيان التوحيدي :المقايسات تحقيق علي شلق للطباعة والنشر –بيروت 986 ص 257

[3] محمد إبراهيم سليم وقد تغنى بالمروءة في مقدمة كتابه وفي خاتمته .

وهذا يعني أن هنالك تفاعلاً بين القيم العربية والقيم الإسلامية ، وأن القيم الإسلامية أخذت تسترفد بالقيم العربية في إثرائها .

ومن جهة أخرى فالمروءة العربية تحددت خارج الدين ، وفي ذلك يقول العتبي : لا تتم مروءة الرجل إلا بخمس : أن يكون عالماً صادقاً عاقلاً ، ذا بيان مستغنياً عن الناس وهذه خصال تقع خارج الدين وداخله .

بالمروءة حسب ما حددناه (جماع مكارم الأخلاق أو بعبارة ابن سنان خلق مركب)

وبالطبع فنحن لا نلحظ قيمة المروءة في نظام القيم الإسلامي ، فهذا النظام يتمحور حول قيمة التقوى ، بقوله تعالى : (إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ) (الحجرات: من الآية13)

وأكمل عبارة تظهر هذا التمييز قوله ﷺ : إن كان لك عقل فلك فضل ، وان كان لك خلق فلك مروءة ، وان كان لك مال فلك حسب ، وان كان لك تقى فلك دين [1] .

وفي مسند أحمد بن حنبل عن أبي هريرة عن النبي ﷺ : كرم الرجل دينه ومروءته عقله وحسبه خلقه .

فالمروءة في مجال الأخلاق والتقوى في مجال الدين ، فلا تعارض بينهما ، وإن كان لكل مجاله

وهذا ما يفسر أن السموأل بن عادياء الشاعر اليهودي العربي الذائع الصيت ، يعتبر نموذجاً من نماذج المروءة ، كما يتجلى ذلك في قصيدته التي مطلعها :

إذا المرء لم يدنس من اللؤم عرضه فكل رداء يرتديه جميل

إذا المرء أعيته المروءة يافعاً فمطلبها كهلاً عليه ثقيل

تعيرنا أنا قليل عديدنا فقلت لها إن الكرام قليل

وما أخمدت نار لنا دون طارق ولا ذمنا في النازلين نزيل [2]

[1] ابن قتيبة : عيون الأخبار –القاهرة -963 –مجلد 1 ج 3 – ص 295

[2] ابن عبد ربه ج1 ص 169

وهكذا يتضح أن المروءة من الدين ، وإن كانت لا تنفصل عنه ، وهذا ما نلحظه جلياً في كتاب أدب الدنيا والدين للماوردي [1] ، حيث أشبع هذه القيمة حرثاً وتحليلاً .

وما فات الماوردي أو سكت عنه قصداً هي الغاية التي تجري عليها المروءة .

فالمروءة لا تجري إلى الملك لأن الملك شوكة وعصبية ، وان كانت تجري إلى ما يوازنه في المجتمع الذي لا ملك فيه ، أي السؤدد (السيادة المعنوية التي في القبيلة) وهذا ما جعل المؤلفين في الأدب يضعون المروءة تحت باب السؤدد كابن قتيبة وابن عبد ربه .

بهذا المعنى فالتقوى تفترض وجود الدين كسلطة تفرض الواجبات والمسؤوليات أما المروءة فتفترض وجود مجتمع معنوي روحي يفرض قيمه من خلال الضمير ، وليس معنى ذلك أن لا أخلاق في الدين ، وإنما الدين موشور ومصفاة تصفى به الأخلاق ، في حين أن المجتمع الروحي الذي لم تقم به سلطة الدين يقوم على الوازع الفردي فقط .

هذا وإننا نستدرك فنضيف الملاحظات الآتية :

1- ساد الاتجاه بين رجال الفكر بأن العرب أمة واحدة ، فابن قتيبة يتحدث عن العرب كأمة على أساس الشرف ، حيث يشير إليها كأمة قبل الإسلام ، ثم يبين أن الله بعث فيها محمداً ﷺ فجمع كلمتها ، ومكن لها في البلاد وخارجها قائلاً : كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر ففيها فضل هذا الخطاب والأمم طراً داخلة عليها فيه[2].

وبين التوحيدي أن العرب أمة لها خصائصها ومزاياها ، فما هي هذه الخصائص ؟؟ ... يقول الجاحظ : قلنا إن العرب لما كانت واحدة ، فاستووا في التربية وفي اللغة والشمائل

[1] ابن قتيبة : رسائل البلغاء ص 282

[2] ابن قتيبة : رسائل البلغاء ص 282

والهمة ، وفي الأنفة والحمية وفي الأخلاق والسجية ، فسكبوا سكباً واحداً وأفرغوا إفراغاً واحداً تشابهت الأجزاء وتناسبت الأخلاط [1]

وهذا هو منهج ابن خلدون في اعتبار الشمائل والسجايا والأخلاق عنصراً من عناصر تكوين الأمة [2]

أضف إلى ذلك شهادات الفارابي والمسعودي والزمخشري والبيروني والمتنبي وابن التعاويدي وصفي الدين الحلي [3]

2) ولقد انسحب هذا المفهوم إلى الإطار الشعبي ، حيث يتبين من القصص الشعبية مثل تغريبة بني هلال وألف ليلة وليلة والضاهر بيبرس وقصة سيف بن ذي يزن وعنترة بن شداد وعلي الزيبق وغيرها تمجيد لمزايا العرب وسجاياهم [4]

3) بعد تقلص السلطان العربي ومجيء البويهين والسلاجقة وغيرهم توسعت القاعدة الشعبية ضد الأجانب المتحكمين وضد الأوضاع العامة [5]

لقد برز دور العامة في المدن الكبرى خاصة بغداد ، وظهرت منظمات شبه عسكرية ، مثل العيارين والشطار والفتيان ، ووقفوا جنب الخلفاء حين تعرضوا لهجوم خارجي ، وتطوع العامة والعيارون ببغداد بجموع كبيرة للدفاع عنها ونصرة الخليفة الأمين ضد أخيه المأمون[6]، كما وقف العامة جنب المستعين ضد القوات التركية المحاصرة [7]

والأمر نفسه موقف العامة مع المهتدي ضد جند الأتراك في سامراء [8]

---

[1] التوحيدي : الإمتاع والمؤانسة ج1ص 70

[2] رسائل الجاحظ : ج2 ص10

[3] المقدمة ص 112

[4] د. عبد العزيز الدوري –التكوين التاريخي للأمة العربية ص 106

[5] المرجع السابق ص 112

[6] الطبري : تاريخ الطبري – تاريخ الرسل والملوك ج3 – ص 1009

[7] المرجع السابق ص 1556

[8] الدوري المرجع السابق ص 166

وكان للعيارين والشطار مبادئ أخلاقية كالمروءة والرفق بالضعفاء والفقراء ، كما كانوا يعتزون بالشجاعة . وكانوا يقفون في وجه السلطة ، وكان دورهم كبيرا في الحياة العامة ، حيث أكدوا على القيم الدينية والأخلاقية من جهة ، وعلى الفروسية من جهة أخرى ، وغلب عليهم اسم الفتوة [1]

كما استهدفت هذه المنظمات مواجهة الظلم وتوفير الأمن ومقاومة التسلط الأجنبي ، وحثت على التطوع ضد البيزنطيين [2]

وظهرت تنظيمات الأصناف ، وهي منظمات شبه عسكرية ، وكان غرضها تحقيق التضامن بين أصحاب المهنة ضد رجال السلطة [3]

5) كان فريق البويهيين والسلاجقة من المنظمات الشعبية موقفاً عدائياً ، ولما انتعشت الخلافة العباسية في أواخر القرن السادس الهجري ورفعت كابوس السلاجقة ، أدركت أهمية المنظمات الشعبية وأفضى ذلك إلى الاتفاق بين الخلافة ، وبين منظمات الفتوة ابتداء بالناصر لدين الله [4]

فقد ترأس هذا الخليفة حركة الفتوة ، فأرسل الرسل إلى الأمراء المسلمين ليشربوا كأس الفتوة ، وقد حاول أن يجعل منها منظمات فتوة تشيع في صفوفها القيم الخلقية ، وحاول أن يكون جبهة تقف في وجه التسلط التركي والتهديد الخارجي الصليبي والمغولي [5]

وقد أشار ابن بطوطة إلى تنظيمات الأخية والفتيان ، وذكر بعض مفاهيمهم ، ويبدو أن جميع أصحاب الصنائع والحرف تأثرت تنظيماتهم بمفاهيم الفتوة [6].

---

[1] ابن الجوزي : تلبيس إبليس نشره محمد منير الدمشقي ط 2 القاهرة : مطبعة النهضة 928 ص 392

[2] ابن الأثير الكامل في التاريخ 103 جزء ، بيروت ، دار صادر 979 ج8 ص 204

[3] ابن الأثير المرجع السابق ص 125 ، ج8

[4] الدوري المرجع السابق ص 119

[5] د .الدوري : المرجع السابق ص 119

[6] ابن المعمار : كتاب الفتوة ص 5-95

واستمر نشاط الفتوة زمن الموجه المغولية وخاصة على الحدود ، إذ يبدو أن تنظيمات أهل الصنائع والفتوة تحولت إلى تنظيمات عسكرية لها دستور أخلاقي نذرت نفسها إلى للجهاد ضد الغزاة ، وجعلت من حرب الطغاة وإشاعة الأمن شعار لها ، وخاصة ضد الصليبيين .

والخلاصة :

بقيت اللغة العربية قاعدة العروبة ، وبقي الإرث الثقافي والاجتماعي قاعدة مشتركة ما بين الاتجاه الإسلامي والاتجاه العربي ، وهو يحتوي قاعدة الأمة بمفهومه الثقافي ، وبربط العروبة بالإسلام ، ولكن هذا الوعي اتجه حديثاً إلى العروبة بالمفهوم السياسي لا الثقافي الاجتماعي[1].

الفرع الثالث

المروءة في ظروفنا الراهنة

ما هو السبيل لخروج أمتنا من كهف الموت ، من جحر الضب وانعدام الوزن ؟؟

في هذا السياق العام يجيب المرحوم الدكتور أحمد صدقي الدجاني بقوله : لا للانكماش لا للانغماس في أوحال الغرب نعم للاستجابة الخلافة .

ولكن يبقى السؤال مطروحاً ، وهو ما إذا كانت أخلاق المروءة تصلح في هذا العصر ذي الطبيعة والماهية الماديين ؟؟

ولعل الدكتور فهمي جدعان تعامل مع السؤال مقارباً ومعانقاً له ، بقوله [2]: " لم يعد من الممكن الاحتكام إلى قوة الوازع من أجل إقامة الحق والعدل وتحقيق النفع العام ، وإن الوازع الخارجي المادي أجدر بأن تتبع ، وفي كلتا الحالتين بات من الضروري أن يكون القانون لا التقوى الذاتية هو الأصل الذي ينبغي عملياً التعويل عليه .

أما حكم التقوى والقصد الخلقي والأمر الإنساني ، فينبغي أن يربط بالتقاليد المثالية الأصلية التي ينشد أصحابها استبدالها بالواقع القائم ، وحتى في هذه الحالة ثمة فسحة للتساؤل الخطير

[1] د .الدوري : المرجع السابق ص 118

[2] كتابه أسس التقدم ، المرجع السابق ص 546

التالي : إلى أي مدى يمكن التعويل على قوة أو سلطة التقوى الأخلاقية أو الدينية ، وعلى المثالية الإنسانية في تدبير المعاملات الاقتصادية أو الاجتماعية – الاقتصادية التي هي بطبيعتها مادية ؟؟ ....وبفرض أن ذلك أمر ممكن في مجتمع غير صناعي ، فهل ذلك ممكن في مجتمع صناعي متطور ؟؟

((إن الإجابة التي تقدمها لنا المجتمعات المتطورة من هذه الزاوية تستبعد من حسابها تماماً أمر التقوى الخلقي أو "القانون الداخلي" ليحل محله الآمر الاجتماعي – السياسي "الظاهر" الذي يتجلى في القانون الخارجي))

(ومع ذلك فإن من حق الذين يدافعون عن ربط الفاعلية السياسية –الاجتماعية – الاقتصادية بالأمر الخلقي والإنساني أن يقولوا إنه لا مكان لكافة هذه الشكوك والملابسات والتهجسات في المجتمع الإسلامي المثالي الحقيقي ، وإن تجربة (المجتمع الإسلامي) تظل متميزة عن كافة التجارب الأخرى التي شهدناها حتى الآن) [1].

ويتابع الدكتور جدعان قوله : " لا مفر من الاعتراف إلى حضارة تستلهم الوجدان والروح والإنسان في عالم باتت فيه هذه القيم غريبة منبوذة ، هي دعوة تفسر تماماً الاستهانة بها أو التنكر لها ،

وربما أمكن القول إنها تمثل أكثر الوجوه إشراقاً في الفاعلية الفكرية الإسلامية الحديثة

(لكن الصيغ النظرية التي اقترحها المفكرون المحدثون من أجل بناء هذه الحضارة تظل على الرغم من مظهرها الجديد القوي حافلة بالصعوبات ، إذ لا شك أن الدعوة لبناء حضارة أصيلة متميزة هي دعوة تدخل في باب الدعاوى الخطابية الجذابة أكثر من دخولها في باب الفعاليات النشطة القابلة للتطبيق العملي المباشر)

[1] المرجع السابق ص 547

ويتابع الدكتور جدعان القول : (ذلك أن المدنية الحديثة فرضت نفسها على أركان المعمورة ، ولم يعد في مكنه أحد التنكب عن الأخذ بهذه المعطيات لأن فعلة كهذه تعني الاستسلام الكامل غير المشروط على مستوى القوى الكونية الفاعلة ، وبالتالي التعرض لخطر الإمحاء من لوح الوجود الحي)

ويتابع القول : (أما حل الإشكالية باللجوء إلى ثنائية القيم المادية ، والقيم الروحية والدعوة إلى التعلق بالقيم الروحية الشرقية بالإجمال والإسلامية بالخصوص – وإلى نبذ القيم المادية الغربية في جوهرها فهو حل يصلح للمناظرات الجدلية) ... انتهى كلام الدكتور جدعان .

وفي الحقيقة يصعب علينا التسليم بكل ما جاء في الرأي السابق ، وفي الآن نفسه يستحيل علينا الرد الممتلئ ، وبذلك نستقصر على إبداء الملاحظات الآتية : [1]

1- لا يمكن التسليم المطلق بواقع الحضارة الغربية المهيمن والمتفوق ، على أساس المراعاة المطلقة ، فذلك ضرب من الوقوع لا الواقعية [2]

2- لا يجوز التعامل مع واقعنا الحضاري من زاوية الخطب ، وإنما من زاوية الفعاليات التي نخلقها على الواقع .

3- لا شك أن الواقع الحضاري يزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن ، أي يغلب القانون على الأخلاق ، لكن أليس القانون نفسه يجد من أسباب فعاليته الاستناد إلى معطى الواجب[3].

ولنا أن نتساءل عن قيمة القانون إذا لم يلتف حوله المواطنون بدافع من الواجب .

أجل ينسب القول إن الله يزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن إلى سيدنا عثمان بن عفان ، ويضيف بعضهم بأن هذا الحديث بحكم فترة انحدار وضعف في حياة المسلمين ، ولنا أن نتساءل أين هذا الحديث من حقبة المؤاخاة الزهية في التجربة النبوية ؟؟

---

[1] مع أننا من المعجبين بكتابه أسس التقدم لما تضمنه من شرح وتحليل ونقد وعرض لآراء مفكرينا حول تقدمنا المبتغى

[2] حاشا أن نهاجم الدكتور جدعان

[3] جان وليام لايبار : السلطة السياسية ص 22

4- عرض الدكتور جدعان لرأي المفكر مالك من نبي المدلل بأنه لا يكون هنالك تحول حضاري إلا بدخول الروح في التاريخ [1]

5- كم تكلم المفكرون والكتاب وقارنوا بين أخلاق العامل الياباني واعتباره العمل واجباً أخلاقياً وبين ركاكة أخلاق العامل الأمريكي وأثر ذلك على مردود العمل والإنتاج [2].

6- قد تستغرق الدعوى القضائية السنين الطوال تنوس بين الكر والفر وفي تلافيف القانون ودروبه المعقدة ، وسرعان ما يحسم الأمر إذا ما وجه أحد المتقاضين اليمين الحاسمة بعد أن أعياه القانون السبيل معتمداً في ذلك إلى ذمة المدعى عليه وضميره ، وهذا ما واجهناه في العديد من الحالات ونحن في خضم دوامة القانون (أتكلم هنا بصفتي محامياً)

7- في قلب الحضارة الغربية نسمع الصراخ المدلل بأهمية الأخلاق في معترك الاقتصاد والاجتماع ، وينادي علماء الاجتماع بدور أكبر للأخلاق في الحياة ، وها نحن أمام العالم الاجتماعي الأمريكي اوستن الذي ينادي بالتحديد السلطوي للقيمة authoritative allocation of values [3] وإبداعها وإنجازها وإنتاجها .

ولنا أن نتساءل عن المعنى الجوهري للديموقراطية وحق الانتخاب والحرية والمساواة ، أليست هذه المقولات نفذت إلى حقل الأخلاق قبل أن تنخرط في حقل القانون .

لكن إذا سلمنا بهذا الدور للأخلاق فلنا أن نتساءل ، ألم يتقلص دور المروءة ، وهل دخل في عالم الاضمحلال ، لكن هل أمحي من لوح الوجود ؟؟ .

---

[1] مالك بن نبي : شروط الحضارة – ترجمة عمر مسقاوي وعبد الصبور شاهين –القاهرة – دار الفكر –القاهرة – ط2 -961 ص 90 وكتابه واجهة العالم الإسلامي ص 97

[2] إدريس هاني : حوار الحضارات –ص49و53 –وقد المح إلى رأي فيبر في دور القيم الروحية والانقلاب البروتستانتي في النهضة الأوروبية .

[3] د.محمود

نحن لا ننكر ضرورة دخول الأخلاق عالم الموضوع وتخليها عن عالم شطحات الذات خاصة في هذا العصر الموضوعي بطبيعته ، إذ شتان بين أن انفق هنا وهناك بصورة عرضية وغير منظمة وبين انفاقي العلمي الموضوعي المؤسس .

أجل كم هو الفارق بين الصدقة الجارية المنظمة الموضوعية التي انتهت بتراثنا إلى مؤسسة الوقف الخالدة المنظمة وبين الصدقة الطارئة الجزئية العرضية المناسباتية .

أليس من الضروري بعقلنا الأخلاقي أن يتلفح بجلباب الموضوعية ، فذلك أعطى وأبقى وأنتج وأفلح .

لكن هل نستطيع أن نوجه هذا السؤال إلى فعالية المروءة وفاعليتها في راهنيتنا ؟؟

هل بقي أي دور للمروءة في هذا العصر الموضوعي العقلاني الذي يقوم بتنظيم الاجتماع والاقتصاد وبرمجته في خطط واستشراقات للمستقبل من خلال رؤية علمية كلية جامعة موضوعية.

أين نحن من أخلاق المروءة العربية الجاهلية القائمة في قسم منها على التبذير والإتلاف؟؟

قد نجد تصويبات رحيمة وهادئة للحديث عن أخلاق المروءة في راهنيتنا من قبل الباحث ادريس هاني ، فقد تكلم المذكور في حديث مطول وبحث عن (عقل الإنتاج وأخلاقيات العمل من المدينة الكالفانية إلى المدينة الإسلامية) [1].

ونحن لا نستطيع مرافقة السيد ادريس هاني في مسيرته الطويلة لكن أستطيع الوقوف قليلاً مع الباحث حول إرسائه عقل الإنتاج المسلم (مقابل عقل إنتاج الكافر) الشاكر المراكم المستثمر الضارب في أصقاع الأرض (هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ) (الملك:15) والقيام بوجهة عمرانها [2]

قال تعالى : (وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ) (ابراهيم:7)

---

[1] ادريس هاني : حوار الحضارات –المركز الثقافي العربي – الدار البيضاء –المغرب – ط 2 ، 2002 ص 43

[2] المرجع السابق ص 47

كما لا مجال لتحليله العميق للرأسمالية الغربية ونقده لها ، وخاصة عندما تتنزل على العقل العربي

.

وحسبنا التدليل والإلماح بما انتهى إليه الباحث حول المخزون الفكري الدنيامي للإسلام ودفاعه الأخلاقي عن تحريم الربا وعن سعة ومرونة العقل الاقتصادي الإسلامي واجتراحه لضروب الشركات التجارية وآليات الكلام عن عموم المكاسب وتقلبات العيش ومقاصد الشريعة والمصلحة ، وغير ذلك

ويختتم الباحث قوله بأن عين المروءة استثمار المال وعين المروءة تكمن في التخطيط المعقلن العلمي المبرمج الموضوعي الهادف .

ويتابع الأستاذ ادريس هاني قوله : لم ينسخ الإسلام قيمة المروءة ، بل سعى إلى إنمائها كي تصبح ذات مفهوم آخر هو التقوى ، فالمروءة هي الصفة التي تطلق على من اجتمعت لديه كل خصال الخير والاعتدال .

فحينما يتجه الشرع إلى أن من أوتي الحكمة ، فقد أوتي خيراً كثيراً ، وذلك أوج المروءة ، وهذا يفهم من القول المأثور : لا دين لمن لا مروءة له ، ولا مروءة لمن لا عقل له ، ومن ثمة فان استثمار المال هو من المروءة ، لا بل من تمامها أي من العقل والدين .

فإذا قيل بأن الاستثمار هو تمام المروءة ، فمعناه أن الاستثمار هو تمام العقل والدين ، ولا دين إلا بالعقل ومن لا عقل له فقد هدم عليه دينه ودنياه (الإمام جعفر الصادق) [1]

بقيت علينا حكمة نزجيها في هذا العام ، وهي كثرة ما كتب الغربيون عن النهضة الأوروبية ، وعن دور الإصلاح الديني (خاصة البروتستاني) من ذلك قول المفكر فيبر .

[1] المرجع السابق ص 42 وقد أشار إلى أن الحديث السابق أثر عن الإمام الحسين بن علي زين العابدين

الفرع الرابع

إسلام العروبة وعروبة الإسلام

وانعكاس ذلك على التكوين النفسي والعقلي لأمتنا

(مسألة التأسيس الأخلاقي لأمتنا)

بعد أن حددنا جوهر ومحتد أخلاقيتنا [1]، سنتقفى أثر بعض الأخلاق التي ظهرت بين ظهراني أمتنا لنبلغ أخيراً إلى نتيجة هامة ، هي أن هذه الأخلاق كانت مجرد أعراض ، ولم تدخل اللباب في حياتنا ، ولم تأخذ سمة الصميمية والجوهر الاجتماعي .

ما هي أخلاقيتنا وما أساس هذه الأخلاقية ؟؟

والواقع أن نظرية المعرفة قد أفصحت عن تأصيل جديد يطالب كل علم من العلوم أن يضع تأسيس هذا العلم [2] l'institutionalisation

ونستطيع القول إن التأسيس هو الفكرة المفتاح la notion – cley لكل علم .

والتأسيس يمدنا بقواعد التفسير ، وهو جواب عن سؤال لماذا ؟؟

والتأسيس يجنبنا الوقوع في شرك الغموض والنصيه والوقوف على سطح الشكل وحدوده

حضر أحد رجال السمتيه (فرقة دينية في الهند) إلى بغداد مناقشاً متحدياً سائلاً ، إذا كان الله خالقاً فمن خلق الله ؟؟

هنا أسقط في يد الشيخ المحاور ، وأجاب بأنه لم يسمع ذلك عن مشايخنا ، فامتعض الخليفة قائلاً : من يكفيني شر هذه المسالة ، فأجيب لا لأحد القدرة على هذه الإجابة إلا عالم معتزلي موجود في سجنك .

---

[1] الأخلاقية –كما حددنا – هي جهاز مفاهيمي يطلق على الأخلاق التي تمثل جوهر وصميم وأساس الأخلاق في مجتمع ما .

[2] الفضل في مقولة التأسيس على مستوى القانون للفقيه هوريو يراجع في ذلك د.ثروت بدوي – النظرية العامة للنظم السياسية ، القاهرة ، 964 ، والنهضة العربية ص 21

تحدث رجل العلم السمتي فأجاب المعتزلي بأن الله عله العلل التي لا علة لها (واجب الوجود) ، وأسدل الستار عن انتصار المعتزلي الذي حمل في يده المفتاح .

لقد تأسست نهضة أوربا على العقل اليوناني والقانون الروماني والأخلاق المسيحية دون أن يعني ذلك اتباع حرفية المؤسس ، بل التأسيس عليه يقوم على عملية الوصل والفصل ، الوصل من أجل القطع ، والقطع من أجل الوصل .

والتأسيس متعدد الآفاق والجوانب ، ويهمنا هنا أن نتساءل : هل نؤسس العروبة على الإسلام أم العكس ؟؟

نعيد ما قلناه سابقاً بأننا لن نهبط بالإسلام لنعتبره مجرد ظاهرة بشرية صرفة ، ونجرده من الأساس الإلهي لتدلل أنه إحدى الموجات التي صعدت من الجزيرة العربية وإن كانت أسمى هذه الموجات وأعلاها رفعة .

وفي الوقت نفسه نتذكر قوله الرسول ﷺ : إن الله يعلم أين يضع رسالته ، لنؤكد أن الأرض العربية كانت لا تزال في طور الفطرة البشرية النقية التربة الأصلح لحضانة البذور الإسلامية.

إذن فتأسيس العروبة على الإسلام هو أمل ومرتجى ومبتغى هذه الأمة أما تأسيس الإسلام على العروبة فهو يمثل جانباً هاماً ليدخل في باب الشرط اللازم غير الكافي .

ذلك لأن الإسلام –ونحن نجيب على السؤال الأخلاقي – أعم وأوسع وأعمق وأرحب وأبعد أفقاً ومنالاً والضيق لا يتسع للأرحب والأرحب لا يقع في الأضيق إلا إذا قلنا أنه شرط هام من شروط تحقيقه وانطلاقه .

وعلى ضوء ذلك سنقوم بدراسة وحرث الظواهر الآتية :

المطلب الأول

الموجه الإسلامية الأولى ومسالة إسلام سيدنا إبراهيم

هل نقول إن الشعب العربي متدين في طبعه وفي العناصر المركوزة فيه ؟؟ ...أم نقول إن النبوة خاصية عربية [1].

أم نتساءل مع الأستاذ فرحان البيك عن ذلك الأساس العصبي للشخصية العربية ؟؟

هل نبالغ إذا انطلقنا مع أستاذنا المرحوم عمر فروح للقول : إذا خرجت العروبة من القلب خرج الإسلام[2].

هل نتكلم عن حضارة نسوِّد ذوق الجمال (الحضارة الأوروبية) مقابل حضارة تبنى على الروح[3].

وأخيراً هل يمكن أن نضع خطاً حضارياً لبابل يختلف عن الخط الحضاري لروما.

فالإسلام في مفهوم القرآن لا يقتصر على المفهوم الدارج والمتداول حالياً (إسلام محمد) بل له مدلول موسع lato sensu هو الإيمان بالله ، وبهذا المعنى الموسع (الذي يتسع لكافة الأنبياء) فالمسلم الأول هو سيدنا إبراهيم ، قال تعالى : (رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ)(البقرة:128)

وقوله تعالى : (وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ) (البقرة:132)

وعلى ذلك تحدد الملامح العامة للمشروع الإسلامي الأول (الموجه الأولى) بما يلي :

المطلب الأول

---

[1] د. شاكر مصطفى: كتابه الأساس الديني للشخصية العربية ط2 ، 990

[2] محمد خالد عمر – إسلام العروبة وعروبة الإسلام

[3] مالك بن نبي : شروط النهضة ص96

بناء البيت

قال تعالى : (وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ) (البقرة:127)

فسيدنا إبراهيم – باني البيت لرب البيت هو الواضع – اللبنة الأولى في عقيدة التوحيد وما يتفرع عنها من مناسك وشعائر .

ويهمنا هنا أن هذه المثابة للناس ، وهذا الإشعاع للكعبة بقي نبراساً موضع تقديس ديني من قبل قطان الجزيرة العربية بعد وفاة الأب المؤسس لمشروع التوحيد ، وإن أصيب المشروع ببعض الانحراف – لا سيما على يد قبيلة خزاعة – فقد كان العرب يؤمنون بالله ويتخذون الأصنام وسيلة لعبادته ، قال تعالى : (مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى) (الزمر: من الآية3) .

وهنالك الدلائل الكثيرة على عبادة الله لا سيما في ديوان العرب – الشعر – يقول النابغة الذبياني :

حلفت فلم أترك لنفسك ريبة وليس وراء الله للحق مذهب

وقال زهير بن أبي سلمى :

فلا تكتمن الله ما في صدوركم ليخفى ومهما يكتم الله يعلم

ولنستمع إلى بعض التلبيات التي كانت سائدة لدى القبائل العربية :

- لا والذي يراني من فوق سبعه أرفعه
- والله كلمة تملا الفم وترقي الدم
- لا والذي سمك السماء
- لا ومجري الرياح
- لا ومنشئ السحاب

- لا والذي دحى الأرض
- لا والذي سجد له الشجر والنجم [1]

ولقد دون لنا الدكتور جواد علي قمطراً من هذه التلبيات الذي نلمح بها المقاربة الشديدة للروح الإسلامية ، بل إن بعضها مفاهيم إسلامية محضة كانت تستعمل في الجاهلية ، كما يتبين من التلبيات السابقة ، وهذا يؤكد وحدة الرؤية بين المفهوم العربي والمفهوم الإسلامي.

المطلب الثاني

المشاريع السياسية التوحيدية

تروي الموارد التاريخية أن قصي بن كلاب (جد الرسول ﷺ) ، هو الذي جمع قريشاً في مكة من رؤوس الجبال وشعابها ، فأنزلهم الأبطح فسمي مجمعاً [2]

لقد كان البيت (رب البيت) هو الذي تأسس عليه بنيان قريش ، وكان الانحراف عن هذا التقليد التوحيدي الإبراهيمي بداية لانقسام قريش بعد أن تعددت الأرباب .

إن هذه الرؤية العربية القديمة للتاريخ والتوحيد الاجتماعي منه يرينا أن جذر الاجتماع الذي يقوم عليه ، ويستمر به وفيه ، هو النص (التقليد) المتوارث من إبراهيم باني البيت لرب البيت ، حيث تولت البيت جرهم بعد اسماعيل الذي شب وتزوج منهم ، فلما انحرفوا عن تقليد التوحيد انخزعت (انقسمت وفارقت) خزاعة لتؤسس اجتماعاً جديداً لم يطل كثيراً بسبب البدعة التي استحدثها لهم كبيرهم عمرو بن لحي متأثراً بأعراب الشام ، ثم تقرشت (تجمعت) كنايه عن تفرقها بزعامة قصي لنسقط انحراف خزاعة ، وتعيد تأسيس التقليد التوحيدي [3]

---

[1] القرآن تحدى بهذه التلبية قال تعالى : (وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ) (الرحمن:6)

[2] رضوان السيد : مفاهيم الجماعات في الإسلام ط1 -984 – بيروت – دار التنوير والنشر ص 18

[3] مجلد 1و2 من الروض الأنف للسهلي وتاريخ مكة للأزرقي وتاريخ الطبري 966/1 وما بعدها ، واحمد إبراهيم الشريف مكة والمدينة من الجاهلية وعهد الرسول – القاهرة –دار الفكر العربي 965 ص 100

هذا الجذر التوحيدي الأول الذي أسسه سيدنا إبراهيم للاجتماع العربي ، وانتهجته جرهم ، ثم كان الانحراف على يد عمرو بن لحي ، فالإصلاح التأسيس على يد قصي إحياء للجذر الأول ، ثم الزلزال الذي أصاب البنيان .

قال ابن إسحاق [1]: واجتمعت قريش يوماً في عيد لهم عند صنم من أصنامهم ، فخلص منهم أربعة نفر نجياً ، وهم وورقة بن نوفل وعبد الله بن جحش وعثمان بن الحويرث وزيد بن عمرو بن نفيل ، فقال بعضهم لبعض : تعلموا والله ما قومكم على شيء ، لقد أخطأت دين أبيهم ابراهيم ، ما حجر تطوف به لا يسمع ولا يبصر ولا يضر ولا ينفع ؟؟

....يا قوم التمسوا لأنفسكم فإنه والله ما أنتم على شيء ....فتفرقوا في البلدان يلتمسون الحنيفية دين إبراهيم ...

يقول زيد بن عمرو بن نفيل :

أرباً واحداً أم ألف رب أدين إذا تقسمت الأمور

عزلت اللات والعزى جميعاً كذلك يفعل الجلد الصبور

فلا العزى أدين ولا ابنتيها ولا صنمي بني عمرو أزور

ولا هبلاً ، أزور ولا ابنتيها لنا في الدهر إذا حلمي يسير

هذا هو العمق التاريخي ، وهذه هي الحنيفية إرهاص سعيد لمطلع الفجر

لقد ابتلى الله سيدنا إبراهيم وأوحى إليه وأبان له طريق الفطرة وأمده بسنن غرسها في ربوع الجزيرة العربية ، قال تعالى : (وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنّ) (البقرة: من الآية124) .

وهذه الكلمات هي سنن الفطرة ، وهي خمس في النفس وخمس في الجسد (قص الأظافر ونتف شعر الإبط إلخ .....)

[1] سيرة ابن هشام : 222/1 – الروض الأنف 347/2

وتغلغلت بصمات سيدنا إبراهيم في صميم الاجتماع العربي ، وقد أشرنا إلى أن جرهم القبيلة الأم في العروبة ، أعتقت وجذرت الجذر الذي غرسه إبراهيم .

هكذا امتزجت الروح الإسلامية بالروح العربية ، واختار الإسلام لغراسه وبذوره درقة ومشتلاً وفطرة ونقاء هو أرض العروبة ، وأخذت الخبرة العربية تنتج قيمها على تجربة الإسلام [1].

تروي الموارد التاريخية عن عبد المطلب سنناً جاء القرآن بأكثرها ، وجاءت السنة بها ، مثل النذور ونكاح المحارم والغسل من الجنابة وقطع يد السارق والنهي عن قتل الموؤدة وتحريم الخمر وأن لا يطوف بالبيت عريان [2].

وذكر صاحب بلوغ الأرب أن الختان من إبراهيم [3]

وذكر جواد علي أن إقراء الضيف هي من إرشاد إبراهيم [4]

فعدم الطوفان في البيت في حالة العري هي ثمرة التفاعل مع الإبراهيمية السمحاء التي أينعت وآتت أكلها ونضجت على يد أبناء هذه الأمة .

وهاهو الجاحظ يصف هذه النشأة للعرب فيقول : لم يفتقروا الفقر المدقع الذي يشغل عن المعرفة ولم يستغنوا الغنى الذي يورث البلادة والثروة التي تميت قلوبهم وتصغر عندهم أنفسهم [5] ولقد عرضنا سابقاً لرأي الشيخ محمد الغزالي ، ولا انعكاس هذه الحالة الاجتماعية (عدم وجود إقطاع أو سلطة مستبده) على الرسالة رسالة الرسول وما استهل من يقوم بالاستبداد أن يسلم الرسول إلى الحاكم ليتطاير رأسه في الهواء .

هل نذكر القارئ بأن عمرو بن نفيل كان يسجد على الأرض ، ويستقبل القبلة وكان يقول: الهي اله ابراهيم [1]

---

[1] د.جواد علي : المفصل في تاريخ العرب –ج 4 -212

[2] المرجع السابق ج4 /583

[3] 287/2

[4] د.جواد علي : المرجع السابق ج4 ص 583

[5] ثلاث رسائل للجاحظ ، تحقيق فلوتن ص 44

4- كان لهذا التلاقح والتعانق بين الإسلام والعروبة أن تبلورت قيم لم نشهدها على أرض أخرى ، فالمروءة - هذه القيمة الإنسانية الكبرى – لم تعرف عند الأمم الأخرى ، بل وجدنا العربي يبذل نفسه مثالاً للدفاع عن أعراض النساء ، فالمروءة عند الغربي [2] ، هي الدين عند المسلم [3].

يقول سيد المرسلين وديان العرب ﷺ [4] : الدين المروءة ولا دين لمن لا مروءة له [5]

ووصف الرسول ﷺ العرب بأن دينهم الحلم ، يقول الشاعر : أحلامنا تزن الجبال رزانة

ويقول ابن تيمية : أهل شجاعة ووفاء وهمه ، وقد توفر لهم ذلك بالقوة الكامنة فيهم والكمال الذي نزل إليهم ، فكانوا كالأرض الطيبة التي سقيت بالماء النمير [6].

وقد وصفهم النبي سليمان بن داؤود بأنهم محبو الحكمة ، كما وصفهم هيرودوت بحب الحرية والوفاء وإعطاء الكلمة ووصفهم ابن قتيبة بأنهم أمة تتواصى بالحلم والحياء وتتعاير بالبخل والغدر والسفه وتتنزه عن الدناءة والمذمة وتتحلى بالنجدة والصبر والبسالة وترعى حق الجوار [7]

لقد بلغ الوفاء بحنظلة الطائي أنه سيعود ، ويسلم نفسه للنعمان يوم بؤسه ، وفعلاً وفى بوعده وأبطل النعمان هذا التقليد السيء

ثم هل ننسى وفاء السموأل في حفظ الدروع ، وتحمله ما تحمل من أخطار جراء ذلك .

وإضافة إلى القيم التي سبق إبرازها فالعرب ، قد تحلوا بالاعتداد بالنفس ، يقول الشاعر :

إذا القوم قالوا من فتى خلت أنني عنيت فلم أكسل ولم أتبلد

---

[1] - بلوغ الأرب ، ص376

[2] -الشيخ محمد الغزالي –حقيقة القومية العربية ص 26

[3] د جواد علي - المرجع السابق ج6 ص574

[4] - محمد خالد عمر : إسلام العروبة وعروبة الإسلام ص 42

[5] - جواد علي : المرجع السابق : ج6 ص 574

[6] - اقتضاء الطريق المستقيم ، القاهرة ، المطبعة الشرعية ، 907 ،ط1 ص 76

[7] رسائل البلغاء ص 282

وكان العربي يغلق عليه بيته ليموت جوعاً دون أن يخضع للدنية [1]

يقول دريد بن الصمة :

أبى الموت إلا آل صمة إنهم أبوا غيره والقدر يجري على القدر

وإنا للحم الموت غير نكيرة ونلحمها جبنا ولسنا على نكر

قسمن بذاك الدهر قسمين بيننا فما ينقضي قسم إلا ونحن على قسم

والعرب يعتزون بشرف الموت :

وكان أخي جوين ذا حفاظ وكان القتل للشبان زينا

وطلب الموت طريق الحياة ، قال رسول الله ﷺ : اطلب الموت توهب لك الحياة

وكانوا يوقدون النار في الجبال لإرشاد الساري ولقرى الضيفان ، قالت الخنساء : كأنه علم في رأسه نار .

وتميز العرب بالأنفة ، قال عنترة يخاطب ناقته :

شربت بماء الدحر ضين فأصبحت زوراء تنفر من حياض الديلم

وهل ننسى مفاخرة المنذر بن النعمان في بلاط كسرى الذي كان يعج بالوفود ، وقوله يعتز بأمته ورفعتها وحسن وجوهها وأنفتها ووفائها

والعرب أول من حبس الحبوس لتكون وقفاً على الفقراء ، ومن ذلك خاطب أبي ربيعة بن الأسود الرسول ﷺ بقوله : يا رسول الله إن أبي كان قد وقف وقفاً فهل أمضيته ، فأمره الرسول بذلك [2].

وبذلوا أنفسهم للدفاع عن المظلومين والذود عنهم فسموا بالزادة [1]

---

[1] المحبر ص 543

[2] د.جواد علي : المرجع السابق ج4 ص 94

ودعا هاشم جد الرسول الأغنياء إلى أن يخرجوا جزءاً من مالهم من أجل الفقراء [2]

وأثر عن العرب أنهم كانوا يرفعون للغدار لواء في المواسم والمواضع العامة قائلين : ألا إن فلانا قد غدر فالعنوه [3]

هذه السمات رشحت العرب للجولة الثانية (الموجه الثانية) مع الإسلام قال رسول الله ﷺ معبراً : لم أبعث باليهودية ولا بالنصرانية ولكن بالحنفية السمحاء [4]

ولقد أدرك الرسول ﷺ الدور الذي يلعبه العرب في حمل لواء الإسلام ، فأتحفنا بأكثر من خمسة وتسعين حديثاً في مدح العرب [5]

قال رسول الله ﷺ : إذا ذلت العرب ذل الإسلام

وقال : من أحب العرب فقد أحبني ومن يبغض العرب فقد بغضني .

وقال من غش العرب لم يدخل في شفاعتي ولم تنله مودتي

وقال رسول اللهﷺ : لا يبغض العرب إلا منافق [6]

وروى الترمذي عن سلمان الفارسي قول الرسول ﷺ يا سلمان لا تبغضني فتفارق دينك فقلت يا رسول الله كيف أبغضك ، وبك هدانا الله ، قال : تبغض العرب فتبغضني [7]

وقال ﷺ : من أحب الرسول أحب العرب ومن أحب العرب أحب اللغة العربية [8]

---

[1] اليعقوبي 24/2

[2] اللسان : 92/14

[3] جواد علي : ج4 ص 41

[4] اللسان : 299/1

[5] الدوري : الجذور التاريخية للقومية العربية –بيروت –ط1 دار العلم للملايين 960 ص 17

[6] رواه البخاري وأبو داوود

[7] ابن تيمية : اقتضاء الطريق المستقيم ص 76

[8] الجاحظ : رسائل التراث –القاهرة 964 تحقيق عبد السلام هارون

وكتب سيدنا عمر إلى موسى الأشعري يقول : أما بعد فتفقهوا في السنة وتفقهوا في العربية وأعربوا القرآن فإنه عربي [1]

هل ندلل بأن بلاد العرب هي جغرافيا بلاد الإسلام قال ﷺ : " طوبى لأهل الشام ، طوبى لسكنى الشام "

ونؤكد مقولة الأستاذ محمد خالد عمر المدللة بعروبة الإسلام وإسلام العروبة [2]. وسندنا في ذلك قول أبي جعفر محمد بن علي الحسين بن علي : من ولد في الإسلام فهو عربي .

وقول أبي هريرة : من أدرك له أبوان في الإسلام فهو عربي .

وتأسيساً على المقولة السابقة فقد كان السلطان محمد الفاتح والسلطان سليمان القانوني يحبان أن يكون لسان الدولة عربي .

ويؤكد محمد عمارة أن التناقض بين العروبة لم يحدث إلا في العصر الملوكي والتركي [3].

المطلب الثالث

الاجتماع الإسلامي في التاريخ

ونقصد هنا المعنى الواسع loto –sensu لكلمة إسلام ، أي ما أسميناه إسلام إبراهيم .

وهذا المجال الذي حددناه لدراستنا يبعدنا عن التعرض بإسهاب لدور الاجتماع في السياسة ، وإن كنا نشير لقول بوتول : السياسة مجرد إبرة مغناطيسية تحركها الساحة المغناطيسية التي هي الاجتماع .

وقول آخر : سوسيولوجيا اليوم هي سياسة الغد .

وقول عالم إيطالي : دعني أعنى بأغاني الشعب ولا تهمني سياسته .

---

[1] ابن تيميه : المرجع السابق ص 77

[2] نقصد كتابه الموسوم بهذا العنوان وقد سبق الإشارة إليه

[3] كتابه العروبة والإسلام والعلمانية ص 21

وإشارة كونت زعيم الوضعية إلى الفيزياء للاجتماعية وبصماتها على السياسة ، وها هو ريجيس دوبريه يعلن من سجنه فيقول : إذا أردت أن تلتمس السياسة فالتمسها في الايدولوجيا ، وإذا أردت أن تلتمس الايدولوجيا فالتمسها في الدين ، وإذا أردت أن تلتمس الدين فالتمسه في الفيزياء الاجتماعية [1].

ولقد أشرنا سابقاً إلى المشروع السياسي لقصي جد الرسول ﷺ وقلنا إن هذا المشروع كان اجتماعياً قبل أن يأخذ المضمون السياسي .

هذا وإننا ندلل بالاجتماع التاريخي الذي أقامه إسلام إبراهيم في التاريخ العربي ، ولا نبالغ أن نقول إن سيدنا أيوب وشعيب (في مدين) والإمارات التي أقامها أبناء اسماعيل في العربية الشمالية (شمال جزيرة العرب) [2]فيها الكثير من نفحات إبراهيم .

ونحن لا نقدم رسالة أو بحثا معمقاً ضافياً في ذلك ، وإنما مجرد إشارة عابرة ، ونترك للشباب قرع أبواب التاريخ واستخلاص نتائجه .

وما أشرنا إليه سابقاً من سنن إبراهيم والتفاف أبناء العروبة حول هذه السنن وتشكيلهم اجتماع حول ذلك .

وإذا كان توتر الإسلام الإبراهيمي أصابه بعض النكسات على يد خزاعه ، فالاجتماع العربي القديم مافتئ يبحث عن جذر مسوغ يمكن له الاستمرار .

لقد كان إبراهيم وكانت حنيفيته ، ذلك الرمز الموحد الذي شهد على حضوره البيت بمكة[3].

وإذا كانت العشيرة كافية لتأسيس حي أعرابي ، أو كانت القبيلة كافية لتأسيس قرية ، فالعشيرة والقبيلة لم يكونا كافيتين لتأسيس مجتمع مديني .

---

[1] ريجيس دوبريه :

[2] جواد علي : ج2 ، ص214

[3] رضوان السيد : مفاهيم الجماعات في الإسلام ص 13

إن الاجتماع المديني يقتضي ديناً أو نصاً من الخارج يتساوى الجميع في ظله ، يتوحد ويضبط فوق روابط الدم والجغرافيا والاقتصاد التجاري أو الزراعي ، وقد بلغت مكة من خلال الإيلاف مفترق طرق ، وأدرك الحنفاء الأربعة ذلك ، وبحثوا عن الجذر وضربوا في آفاق الأرض وأعماق النفس ، ثم كانت النبوة [1]

المطلب الأول

الاجتماع التاريخي العربي

ودوره التكويني في الموجه الإسلامية الثانية

وعلى الأرض العربية وعلى ضوء العقل والخبرة والتجربة والضمير والعاطفة ، وعلى حس الأرض ونداء السماء الذي وجدناه في تجربة أبينا إبراهيم ونبوته وتشكل الاجتماع العربي .

وككل اجتماع إنساني فيه إبداعات كما تخللته سقطات وانتكاسات ، وجاء محمد ﷺ من قلب هذه الأمة – خيار من خيار –يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة .

لقد نظف محمد الحقل من الأعشاب والنوابت والأشواك ، وأبقى على كل ما هو صالح استجابة لرسالة مكارم الأخلاق وحباً للأهل والوطن .

وإذا كان المجال لا يتسع لتسجيل مدى تأثير الاجتماع العربي ، فحسبنا الإشارة إلى موسوعة الدكتور جواد على (المفضل في تاريخ العرب قبل الإسلام) ، فقد خصص مئات الصفحات لذلك .

ولقد تعددت أضراب التأثير والتأثر في التجربة الإسلامية ، سواء من حيث استخدام تعابير كانت سائدة في الجاهلية مثل تعبير حجراً محجوراً ، ومثل تعبير النجم والشجر يسجدان ، ثم

[1] المرجع السابق ص 14

استعمال القرآن الكثير من المفاهيم والمصطلحات الجاهلية ، مثل النفاثات في العقد [1] (كان اليهود يحترفون ويكرسون استعمال السحر) ، ومثل مصطلح الإيلاف ومثل الجهاز المفاهيمي (الرحمن)

لقد سمع أهل اليمامة أن الرسول ﷺ استعمل عبارة رحمن رحيم ، فقالوا اسمعوا ما جاء به ابن أبي كيشه (لقب أطلق على الرسول) ، فهذا هو اسم إلهنا [2]

وأطلق أهل الجاهلية (أم الهادية) على جهنم [3]

واستعمل القرآن الكريم كلمة بياتاً (أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتاً وَهُمْ نَائِمُونَ) (لأعراف:97) وهي جهاز مفاهيمي جاهلي استعمل في الجاهلية بمعنى الغارة في الصباح .

واستعملت في الجاهلية كلمة صريخ لتعني الشخص الذي ينذر أهله بدنو العدو [4] .

ولقد استعملها القرآن قال تعالى : (وَإِنْ نَشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلا صَرِيخَ لَهُمْ وَلا هُمْ يُنْقَذُونَ) (يّس:43)

واستعملوا كلمة صديق حيث أطلقت على وكيع بن مسلمة الأمادي [5] قال تعالى : (وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقاً نَبِيّاً) (مريم:41)

وأطلقوا حرف نون (ن) على المحبرة [6]، قال تعالى : (نْ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ) (القلم:1)

---

[1] تاج العروس 650/1

[2] تفسير الطبري : 821/15 – جواد علي ح6 ص40

[3] اللسان : 147/10

[4] اللسان : 32/2

[5] تفسير الطبري : 67/16

[6] اللسان : 427/13

واستعمل القرآن الكريم مصطلح الكاتب بالعدل (وَلْيَكْتُبْ بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ) (البقرة: من الآية282) وهو كاتب العهد عند الجاهليين [1].

وأطلقوا تسمية المكاتبة على المعاهدة بين السيد ومملوكه ، وقد ورد هذا الاستعمال في سورة النور ، قال تعالى : (وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْراً) (النور: من الآية33)

واعتبر العرب الرمي من الصفات الحميدة ، قال ﷺ : ألا أن القوة الرمي [2]

وكانوا يحتقرون المباغتة ، وينذرون العدو وهذا حكم إسلامي [3]

وكانوا يبذلون جهدهم لخداع العدو ، قال ﷺ : الحرب خدعة [4]

والقاعدة في الجاهلية أن يأخذ القاتل سلب المقتول ، ولقد أقر الإسلام ذلك [5]

وكانوا يقولون : الدم الدم والهدم الهدم ، أي دماؤنا دماؤكم ، واستعمل الرسول ذلك في بيعة العقبة .

وكانوا يغمرون أصابعهم في جفنة مملوءة طيباً (حلف المطيبين) ، وقد بايعت نساء قريش الرسول ﷺ بعد فتح مكة على جفنة ماء [6] .

وزعموا (الكهان) أن الشياطين يسترقون السمع ، وذكروا أن النجوم تقذف الشياطين [7]

وعرفوا المراعي العامة ، والرسول ﷺ يقول : الناس شركاء في ثلاثة الماء والكلأ والنار [8]

---

[1] الطبري : 193/3

[2] العقد الفريد : 222/1

[3] جواد علي ح5 ، 435

[4] العقد الفريد : 123/1

[5] صحيح مسلم : 149/5

[6] جواد علي : ح6 ص 527

[7] الروض الألف : 35/1

[8] الماوردي : الأحكام السلطانية ص 208

ولم يكونوا يبيعون الإبل النجيبة (الحرائر) ، ومن الحديث النبوي : لا تأخذوا من حرزات أموال الناس [1].

واتبع أهل الجاهلية القول : من أحيا أرضاً فتية فهي له ، واستعمل الرسول ذلك في حديث نبوي .

ولم يكن أهل الجاهلية يأكلون لحم الخنزير ، وقد رجعوا بذلك إلى سنن إبراهيم ، كما عيروا النصارى بذلك [2] وعرفوا قسط المر : وقال ﷺ : عليكم بهذا العود فان فيه ستة أشفية[3].

وعالجوا بالزيت والحبة السوداء ، قال ﷺ : إن هذه الحبة السوداء شفاء من كل داء [4]

واستعملوا السواك ، قال ﷺ : السواك مطهر للفم [5]

وإذا اختفى الهلال اعتبروا الشهر قد انتهى ، وجاء في الحديث : الشهر مرة تسعة وعشرون ومرة ثلاثون يوماً [6] .

ولا عجب فالتقويم الرسمي عند العرب هو تقديسهم لإله القمر[7] وهو شهر محرم هو أول السنة في الجاهلية والإسلام [8].

وكان طبيب العرب الحاث بن كلده يقول : الطب الأزم والبطنة بيت الداء والحمية رأس الدواء وشر الدواء إدخال الطعام على الطعام .

وأعطي التداوي بالحلبة قيمة كبرى في الجاهلية ، وقال ﷺ : لو علم الناس ما في الحلبة من فائدة لاشتروها بوزنها ذهب .

---

[1] د. جواد علي : ج7 ص 118

[2] تاج العروس 167/7

[3] إرشاد الساري : 365/8

[4] إرشاد الساري : 365/8

[5] البيان : 214/3

[6] مروج الذهب : 188/2

[7] جواد علي ح8 ص 429

[8] اليعقوبي : 5/1

والشفاء عند العرب شربة عسل وشرطه محجن وكية نار [1].

وقد أكد الرسول التشميت المعهود في الجاهلية [2]

وكان العرب يسدلون شعر الرأس ، وقد فعل الرسول ذلك [3]

والزواج عند العرب بمعرفة الولي أو القيم [4] ، ولا يجوز عندهم زواج الأصل بالفرع أي الأب بابنته ولا الجد بحفيدته ، ولا الأم أن تتزوج ابنها ، ولا الجدة أن تتزوج حفيدها ، ولا للأخ أخته ، ولا الرجل أن يتزوج ابنته ، وأخته ، وحرم نكاح العمة والخالة والجمع بين الأختين[5]

وعرف العرب الطلاق [6] والايلاء [7]

واستعمل العرب كلمة فقه بالمدلول المستعمل في الإسلام [8]

وحكم الحكم بن عامر بن الظرب العدواني في الخنثى ، وقد أخذ الإسلام بذلك [9]

وحكم ذي المجاسد في توريث الذكر مثل حظ الأنثيين [10]

وعرف العرب الرهان والشهادة والتحكيم [11]

ووضع قس بن ساعدة قاعدة : البينة على من ادعى واليمين على من أنكر [12]

---

[1] المرجع السابق 45/8

[2] نهاية الأرب 97/18

[3] تاج العروس 649/5

[4] جواد علي : ج2 ص 546

[5] جواد علي : ج5ص259

[6] بلوغ الأرب 149/2- الأغاني 130/8

[7] المفردات ج220-الحصاص 427/3

[8] جواد علي : ج2 ص 650

[9] المحبر ص 237

[10] المحبر ص 237

[11] جواد علي : ج5ص 483

[12] الأمثال للميداني

واشترط المهر في الزواج (المعجل والمؤجل) ، والطلاق عندهم ثلاثاً ، وينسبون ذلك إلى سنن إبراهيم ، كما عرفوا الظهار وذموه .

ولقد اشترطت بعض النساء الشريفات حقهن في الطلاق ، منهن سلمى لبيب بن خداش الخزرجيه وفاطمة الأنبارية وفاطمة بنت جفنة وعاتكة بنت عمر [1]

وكانت عدة المتوفى عنها زوجها في الجاهلية سنة ، وحكم الأكثم بن صيفي بأن الولد للفراش وقد أخذ الإسلام بذلك [2].

واعتمد العرب في الجاهلية عقوبة الصلب ، وقد طبقها الإسلام [3]وأول من قال عنها من الجاهلية عقبة بن أبي جعبط ، كما عرفوا عقوبة الجلد ، وقد طبقها الإسلام في الزنا [4]

ولعلنا أبرزنا هذا الغيض من فيض من الحامل الثقافي المشترك بين الإسلام والعروبة ، لندلل بذلك اللحمة والسداة التي تشد الظاهرتين ، ولنقول إن العروبة كانت حاملاً تاريخياً وحضانة وفرشة ومشتلاً غرست فيه غراس الإسلام اليانعة .

قال تعالى : (أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ ، فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَكِينٍ) (المرسلات:20،21)

أجل لقد كان الماء المهين أي البذور هي الإسلام ، وهذه البذور لا بد لها من قرار مكين ، هو الحضانة العربية التي احتضنت هذه البذور .

يقول ابن عباس : ما رأيت قوماً مثل أصحاب رسول الله ﷺ ما سألوه إلا عن ثلاث عشرة مسألة [5].

---

[1] المحبر ص 398

[2] المفردات للراغب الاصفهاني

[3] جواد علي : ج5ص70

[4] جواد علي : ج5ص70

[5] ابن القيم الجوزية –أعلام الموقعين عن رب العالمين ج1 ، دار الجيل ببيروت 973 ص 71

فالقرآن الكريم ذلك المحيط (الأوقيانوسي) الثقافي كان واقعاً ثقافياً ملموساً لدى العرب ، وقد جاء تعبيراً ثقافياً وأخلاقياً عما في نفوسهم وقيمهم .

لقد اختلط العرق العربي الفاتح على مر الأجيال بالعرق المغلوب ، فنجم عن ذلك فقدان حوله الغالب والصفات التي خولته السيادة .

وبانحطاط الروح القومية عند العرب ضعفت أنفسهم [1] واعتقدوا أنه ليس هنالك ناهض وحمولة تاريخية إلا بإحياء روح الإسلام وظهيرها الرافد والحليف الطبيعي .

لكن هل صحيح أن الحضانة العربية كانت كالماء المهين في القرار المكين ؟

هذا هو بحثنا المقبل الموسوم بعنوان تقديرنا وتقويمنا لأخلاق المروءة

الفرع الخامس

تقديرنا وتقويمنا لأخلاق المروءة

أوضحنا أن الثقافة الإسلامية وجدت حضانتها الحميمة ودرفتها القوية وقرارها المكين في العروبة ، وكانت أبداً السيف الإسلامي يمتشق عضباً من الغمد العربي .

ومذ أن هتف صوت السماء بلسان الأمين جبريل في أذن الأرض أذن أمينها محمد ، منذ اللحظة الأولى للنبأ العظيم ، كانت الاستجابة والتجاوب من أرض العروبة ، تماماً كما الأرض العطشى لوابل السماء .

وإذا كان الرسول الأعظم ﷺ – أول معانقته للوحي – تقاذفه التساؤل لصدمة النبأ العظيم ، فإن زوجه خديجة أدركت منذ اللحظة الأولى جوهر القضية ، واستعانت في هذا الفهم بقريبها الحكيم ورقه من نوفل الذي أخذ يربط الجأش ويطمئن البال ، ويزف البشرى

وتتابعت الاستجابة تعبيراً وتأكيداً لهذه المطابقة واستقبالاً لهذا النبأ العظيم ...

---

[1] د. فيليب حتى ود. ادوار جرجي ود.جبرائيل جبور : تاريخ العرب ، دار غندور للطباعة والنشر بيروت ، ط7 ، 986 ، ص311

وفي الحقيقة إن أية ظاهرة ثقافية قد تبذر في حضانة مطابقة ، والعكس فقد تلقى ارتكاساً ومعاندة ورفضاً وانتكاساً دون أن تتمخض عنها الأرض أو تمتثلها .

ولقد ضربنا الأمثلة المتعددة لهذا التمثل والهضم ، وقلنا إن هنالك الكثير من المفاهيم والمصطلحات الثقافية المشتركة بين الثقافة العربية والثقافة الإسلامية ، إضافة إلى الأحكام والتشريعات " خصوصاً الأحوال الشخصية والعقوبات " والأخلاق والقيم والنظرة إلى الكون والوجود .

فصحابة رسول الله ﷺ أحاطوا بالثقافة الإسلامية وهضموها ، ومع ذلك لم يعثر عليهم فهم ثلاث عشرة مسألة تأكيداً لهذا الفهم والاستيعاب .

لقد أتضح لنا أن العروبة هي قاعدة صلبة في البناء الإسلامي ، فهي تنزل منه منزلة الجاذبية من الأجرام السماوية .

لقد أدرك الرسول الكريم ﷺ أنه ما من ثقافة إلا ولها جذر أساسي ولباب تنطلق منها وتقوم عليها يصدق ذلك على النظام الشيوعي والرأسمالي والمسيحية والبوذية الخ ...

وثقافة اللباب هذه هي الشرط اللازم الكافي لبقاء المنظومة واستمرارها وازدهارها ، وبالتالي فإن سقوطها مدعاة إلى تصوح المنظومة برمتها .

فالولايات المتحدة الأمريكية منظومة مؤلفة من عدة أجناس وأقوام ، ولباب هذه العناصر وفائدتها العنصر الانجلوساكسوني الذي يورث فيها الاتساق ويبعث التوازن ، والنحلة تطير في السماء بحثاً عن الرحيق ، لكنها تعود إلى الخلية التي انطلقت منها والتي تضفي على حركتها الاستقرار .

هل كان على الرسول ﷺ أن يهيم على وجهه داعياً أم ينطلق من أهله ، ثم من أمته (ماء مهين في قرار مكين) .

وهكذا يبدو تهافت وعدمية النظرة المدللة بأن العرب في الجاهلية : خيمة وناقة وصحراء ، وبالتالي كيف بنا نتكلم عن هذا الانبثاق العظيم للنبأ العظيم .

فالعظمة من العظيم والضعيف لا يولد إلا ضعفاً والقوة لا تتمخض إلا عن قوة ، وتلك سنة الله ، والقول بغير ذلك يجعلنا نتساءل لماذا لا تنبثق العظمة من العدمية من راهنيتنا وظروفنا المعاصرة .

لقد أدرك الرسول الكريم ﷺ أهمية هذا الجذر الاجتماعي المؤسس ، فكان يدافع عن العرب ، وحديثه مع سيدنا بلال وقوله : تكره العرب فتكرهني .

لقد ثبت لنا أن دعائم الإسلام اكتملت في الفترة الممتدة من غار حراء إلى صفين ، والمتأمل تاريخياً يتضح له أن مادة هذه الدعامة كانت عربية خالصة ، إذ في هذه الحقبة لم تدخل شعوب أخرى في الإسلام ، والفتح كان بسواعد العرب ، كما أن المعارك الكبرى التي أسست الإسلام (القادسية – اليرموك) ، أكبر مصداق لذلك ، والسؤال ما المصير لو انتصر الفرس في القادسية ؟ .

لقد تأكد لنا أن الحركات الشعبية (الفتيان – الأصناف – الشطار) لم تكن لتفصل العروبة عن الإسلام ، وإن هذا الفصل لم يحدث إلا في الوعي التركي والسلجوقي والبويهي والمملوكي ملفتين الانتباه إلى نقطة عرج عليها الأستاذ علي حرب ، وهي أن العربي أقرب إلى الأصالة والمروءة ، أما العروبي فهو أيدلوجي أقرب إلى الزيف [1]

والموقعون عن رب العالمين ، الفقهاء العضويون (مالك – أبو حنيفة –الشافعي – احمد بن حنبل –جعفر الصادق – ابن تيمية وغيرهم) أدركوا أهمية هذا الحامل التاريخي (العرب)

[1] مقاله الموسوم بعنوان : غزو ثقافي أم فتوحات فكرية – مجلة الفكر العربي – بيروت 1993 معهد الإنماء العربي ص 73

وإذا كان الرسول ﷺ ثمن وقدر أهمية المروءة (دين العرب في الجاهلية) ، فإن التقوى الإسلامية (شقيقة المروءة) ، فإن جوهر المروءة القائم على الهمة بقيت أقرب القيم إلى التقوى وإن من لا مروءة له لا دين له ، كما أثر عن الرسول

هل قاربت الثقافات الأخرى (أخلاق الطاعة – أخلاق السعادة – أخلاق الفناء) صرح الأمة وضميرها ، أم بقيت من النوابت والذؤان على سطح ثقافتنا ؟؟ .. هذا هو موضوع أبحاثنا المقبلة ..

المبحث الثاني

الأخلاق المجلوبة (النوابت)

تمهيد

هكذا كان تصنيفنا لمادتنا ، ولتأخذ هذه الأخلاقيات مكانتها كما تريد ، وتبني لها قصور السعادة كما تشاء ، لكن الخطر كل الخطر أن تنقل ميكانيكياً إلى حضارتنا خلافاً لقوانين وأصول الانتقال الحضاري .

فالقواعد الحضارية تقول إن نقل الحضارة يكون بعد صب العصارة الهاضمة عليها ، وتمثلها بالقدر وبالشكل التي تقتضيها الظروف الحضارية .

كذلك كانت الأخلاقيات الآتي ذكرها ، فهي لم تنقل عن طريق روح الأمة وضميرها الجمعي لتشكل جزءاً لا يتجزأ منها إنما جلبت بالطرق الأخرى .

فأخلاق الطاعة دخلت إلى حضارتنا بالسيف لا بالضمير ، وأخلاق التصوف من خلال الشقوق والفتوق والخروق ، والأخلاق اليونانية عن طريق ثقافة العلم لا ثقافة الأمة كما عبر عنها الفقيه العضوي .

وفيما يلي هذه الأخلاق مشيرين إلى أننا هاجمنا أخلاق التصوف باعتبارها اعتداء على الذات الإلهية حسب الفكر القرآني وطبعاً لا نقصد بالتصوف الذي لا يمس أساسنا الفكري

والعقيدي الذي هو الذات الإلهية ، وإنما هي مواجد قد يكون لنا حولها بعض المواقف التي تتعلق بالمظهر لا بالجوهر .

وسنقسم هذا البحث إلى ثلاثة فروع حسبما هو مبين في الآتي :

الفرع الأول

أخلاق الطاعة

نؤكد ما قلناه بأن المرحلة الأولى من مراحل الحضارة العربية الإسلامية (الممتدة من غار حراء إلى صفين) ، هي المرحلة التأسيسية التدشينية التي تكونت فيها عناصرها الجوهرية ، حيث كانت أغلبية هذه العناصر دينية تسودها الروح .

يقول المفكر الكبير مالك بن نبي : ولست أدري لماذا لم ينتبه المؤرخون إلى هذه الواقعة التي حولت وحركت مجرى التاريخ الإسلامي ، وأخرجت الحضارة العربية الإسلامية إلى دور القيصرية الذي يسوده عامل العقل وتزينه الأبهة والعظمة في الوقت الذي بدأت تظهر فيه بؤرة الفتور الدالة على فتور الروح [1]

وهذا هو رأي الدكتور محمد عابد الجابري الذي رد ذلك الانكفاء إلى اعتناق حضارتنا إلى أخلاق الطاعة المتمثلة في القيم الكسروية [2]

وكما قال المصلح والمفكر الثائر جمال الدين الأفغاني : إنه إذا قويت عناصر الصعود هبطت عوامل النزول والعكس ، كما يحدث في شعبتي الأواني المستطرقة [3]

هل ننسى شهادة بطريرك الإسكندرية في وصفه جنود عمرو بن العاص بأنهم يجلسون على الأرض عند تناول الطعام لا تعرف قائدهم من مقودهم ، فإذا حان وقت الصلاة هبوا جميعا يستقبلون القبلة .

---

[1] مالك بن نبي : شروط النهضة ص 77

[2] د. الجابري : العقل الأخلاقي العربي ص 131 وما بعدها

[3] د. فهمي جدعان : أسس التقدم ص 249

هل بقي الأمر هكذا في حضارة لا تفرق بين القائد العسكري وبين أدنى مقاتل ؟؟

لقد ابتدأ هذا التحول والهبوط مع أول خليفة أموي ، ثم أخذ في التوسع والتعمق باتجاه أخلاق الطاعة ولصالحها .

فقد بدأت فكرة الجبر تظهر منذ معركة صفين ، وبدأ معاوية يخاطب الناس ، لا على أساس أخلاق الطاعة فحسب ، بل على أساس الخضوع مكرهين [1]

لقد كان معاوية صريحاً في حكم خصومه بالقوة ، إذ تروي المصادر التاريخية أنه قدم المدينة المنورة عام الجماعة ، وقد صعد المنبر ، وقال : والله ما وليتها محبة علمتها فيكم ، ولكني جالدتكم بسيفي هذا مجالدة ، فقد حاولت أن أحملها على مسيرة أبي بكر وعمر وعثمان ، ولكنها نفرت من ذلك نفاراً شديداً ، وهكذا يقترح عليهم مؤاكلة ومشاربة جميلة ، أي أن ما بينهم مجرد عقد منفعة وآلية أخذ البيعة لابنه يزيد معروفة ، قال معاوية : خليفة الله هذا ، فمن لا يقبل فمصيره هذا مشيراً إلى السيف .

وانتقلت هذه القيم إلى الدولة العباسية مع أبي جعفر المنصور مغيبة الفرد كقيمة في ذاته .

هل نفهم من خطبة معاوية السابقة أن المجتمع الإسلامي خضع لظروف جديدة ، الأمر الذي كان على الخليفة أن يساير هذا التطور ويعترض آليته وتقنيته .

هل نعود إلى مقولة زعيم الوضعية الفيلسوف كونت بالفيزياء الاجتماعية والبناء التحتي لندلل (القوى الفاعلة في المجتمع) كأساس للبناء الفوقي " الدين – القانون- الأخلاق –السياسة – العادات - الخ...." .

نعود لنتساءل هل إن البناء التحتي في المجتمع العربي الإسلامي عصف به التغيير في قاعدته التحتية ، فما كان عليه إلا أن يحدث هذا التغيير الذي حدث على يد معاوية .

[1] المرجع السابق ص141

لا نعتقد ذلك فجبهة سيدنا علي كانت أقوى من جبهة معاوية ، تأكيداً على أن الموقعين عن رب العالمين أقوى من هيمنة الموقعين عن السلطان .

في كل أمة من الأمم هنالك منظومة من القيم تدعمها قوى فاعلة هي اللباب ، تتحمل تطوير المجتمع وقيادته واستمراره ، والسؤال ألم يكن الأجدر بمعاوية أن يستجمع هذه القوة اللباب ، ويشكل منها النواة .

كيف اضطلع بهذه المسؤولية التاريخية الخليفة الأواه المنيب عمر بن عبد العزيز ، ولم يضطلع بذلك الخليفة معاوية ، أليست العوامل الذاتية هي التي فعلت فعلتها .

تؤكد الموارد التاريخية أن الخوارج ألقوا سلاحهم واسكتوا تمردهم على عهد الخليفة الأواه المنيب عمر بن عبد العزيز ، وهذا دليل على أن الشعب وجهته فقط العدالة ، فهل سارت الملكية العضوض مع العدالة ، أم أسست للجاه والصولجان .

لقد تم هذا الانفصال الحاد بين المجتمع والسلطان رغبة وتصميماً أكيداً في السلطان أن يمتلك الهواء والماء والأجساد حسب مقولة ابن المقفع [1]

لقد اختار الملك العضوض حكم السيف على القلم ، وكان بالجهشيار يقول :

تهابه وزراء الملك راغمة وعادة السيف أن يستعبد القلما

لا نستغرب ذلك لأن هذه المدة الممتدة بين صفين والجهشاري (متوفى في سنة 331 هـ) تكرس فيها السيف على حساب القلم بصورة ملحوظة ، وكأن بالمفكر صاحب القلم الحر يقول في طبائع الاستبداد : إن شعرة التقييد تصيح على يد السلطان كبلاً من حديد .

[1] عبد المجيد الصغير : الفكر الأصولي ، إشكالية السلطة العلمية في الإسلام ، دار المنتخب العربي 994 ، الدار البيضاء ط1 ، ص 79

وقريب من ذلك قول ابن خلدون : إن أكثر الأحكام السلطانية جائرة في الغالب ، والعدل المحض هو في الخلافة الشرعية ، وهي قليلة اللبث [1]

هل نستطيع أن نقول أن النزعة إلى (الملكية / العضوض) عميقة في نفس معاوية نجدها منذ ولايته على الشام ، حيث حاول تبرير الاستلهام والاقتباس من النماذج السياسية غير الإسلامية بالإبتعاد عن المعنى الشرعي لمفهومي الضرورة والمصلحة [2]

وليس صحيحاً أن سبب شيوع أدبيات نصائح الملوك في ثقافتنا السياسية راجع إلى موقف المسلمين من العلم ومن الحكمة التي هي ضالة المؤمن [3] ، بل السبب في شيوع النموذج الساساني في تدبير السلطة والتطور العقلي الذي سارت عليه الخلافة منذ العصر الأموي ، حيث كانت تشجع ذلك التراث ، وتجد فيه الحل لمشكلاتها ، وقد شجع الكتاب الإداريون وزينوا للخلفاء السير على هذا الطريق ، وأفاضوا في الحديث عن سياسة أزدشير وتدبير أنوشروان [4].

لقد شعر هؤلاء أنهم يؤسسون تقليداً غريباً في وسط ثقافة إسلامية مناهضة لمفاهيمهم الأساس ، فحاولوا بمختلف الوسائل نشر بديلهم السياسي ، وتشجيع أصوله الفكرية المتمثلة في أدب الكتب والرسائل المانوية [5].

وربما كان ابن المقفع من أولئك الذين يضمرون حنيناً إلى التراث الفارسي بدليل كثرة ما نقله من ذلك التراث (خدلينانامه –سير ملوك الفرس – آيين نامه –كتاب التاج)

وما له دلالته في الكتاب الأخير أنه أضيف إليه سيرة بعض خلفاء بني العباس ليظهروا بمظهر المستلهمين لسيرة ملوك الفرس [1].

---

[1] المقدمة ص 655

[2] د. عبد المجيد الصغير : الفكر الأصولي ص 88

[3] رضوان السيد : الأمة والجماعة والسلطة

[4] د. عبد العزيز الدوري –الجذور التاريخية للشعوبية ، بيروت – دار الطليعة 980 ، ص53

[5] فاروق عمر : التاريخ الإسلامي وفكر القرن العشرين ، بيروت –مؤسسة المطبوعات العربية ط1 -980- ص 132

فالتأويل للتراث الفارسي وللقليل من التراث الهلنستي سرب مفاهيم سلطوية اندست إلى الثقافة السياسية العربية الإسلامية فأصبحت الضابط الذي يضبط السلطة بقاعدة الجماهير الإسلامية [2]

فمثلاً هذا الطلسم المعروف بطلسم الملك الذي نقله أحمد بن يوسف في الأسرار المنحول لأرسطو يضمن للملك المهابة وخضوع الجمهور بالرغبة والرهبة ، إذ تراه يتوجه إلى الشمس وإلى باقي الأرواح متهللاً داعياً أن ينصروه على جميع العالمين ويذلون له كل الملوك في جميع أقطار الأرض [3]

لقد كانت هذه الأدبيات السياسية المنقولة (مرايا) ، وجدت السلطة الإسلامية نفسها ومصلحتها في تلك المرايا .

هكذا تبدو وحدة الخطاب السياسي الساساني والهلنستي المنقول إلى الحقل الأدبي الإسلامي ، وهو منطق عمل على بث مفاهيم سلطوية ما لبثت أن انتشرت كالهشيم بين مالكي زمام السلطة في الإسلام .

فها هو ابن المقفع شبه السلطان بالجبل الصعب المرتقى الذي فيه الجواهر النفيسة ، وفيه أيضاً السباع والنمور والذئاب [4].

لقد هم الخليفة المهدي بضرب عنق القاضي شريك بن عبد الله لأنه رأى في الحلم أنه يطأ بساطه ، فاستشار أحد رجال الدين ففسر له الحلم بأنه عصيان ، وعندما ووجه القاضي بذلك أجاب : أفبالحلم نضرب أعناق المسلمين ، فاستحى الخليفة من موقفه [5]

---

[1] د.الدوري : الجذور التاريخية للشعوبية ص 27

[2] عبد المجيد الصغير : الفكر الأصولي ص 92

[3] عبد المجيد الصغير : الفكر الأصولي ص 95و96

[4] كليلة ودمنة لابن مقفع وضمن أعماله الكاملة ص86

[5] مسند الفقيه لأبي يعرب التميمي ، كتاب المحن ص 236

وأمر السلطان أحد الوجهاء أن يطلق زوجته فأبى ، ولكن ناصحاً قال له : إن السلطان لا يخش في الدنيا عاراً ولا في الآخرة ناراً [1]

لقد طالت ولاية عبد الرحمن بن خالد بن الوليد فخاف منه معاوية ، وأرسل من دس السم له فمات [2]

وأفصح الوزير ابن الفرات عن شرط الذي يستعان به في خدمة السلطان فقال : أريد رجلاً لا يؤمن بالله واليوم الآخر يطيعني حق الطاعة [3]

ولقد أراد الخليفة العباسي المهتدي بالله 255-256هـ أن يسير على خطى الخلافة الراشدة ، فدبر له رجال السلطة مؤامرة وقتلوه .

لقد قتل معاوية الزاهد المحدث حجر بن عدي لأنه رفض أن يلعن الخليفة علي بن أبي طالب[4] ، وأمر الحجاج أن تختم يد أحد الصحابة لأنه رفض أن يمد يده له ، كما ختم على يد الحسن البصري الرجل التواب الأواب [5].

ولا ننسى ثورة القراء الذين قتل الحجاج منهم ثلاثة آلاف شخص [6].

لقد استطاع أبو العرب التميمي أن يصنف كتاباً كاملاً في المحن التي وقعت على رجل العلم من قبل السلطة [7].

فالخلفية لو أمر الجبال أن تسير لسارت ولو أمر أن تستدير القبلة بالصلاة لفعل ذلك .

---

[1] الطرطوشي : سراج الملوك ، طبعة انطوان غندور – مصر 1289 هـ

[2] أحمد بن يوسف : العهود اليونانية المستخرجة من كتاب السياسة لأفلاطون : ص57

[3] الجهشاري : كتاب الوزراء والكتاب ص 27

[4] كتاب المحن ص116

[5] المرجع السابق ص 428

[6] المرجع السابق ص 196

[7] المرجع السابق

لقد استشرف الرسول الكريم ﷺ فاستشف انفصال القرآن عن السلطان فقال : ألا إن القرآن والسلطان سيفترقان ، فلا تفارقوا القرآن ، وتم هذا الانفصال منذ معركة صفين كما قال مالك بن نبي .

وتعمق الأمر فكان الفقيه العضوي رجل العلم والشريعة والدين يمثل العمل في ظل القرآن ، ولهذا لا عجب أن نرى ابن القيم يسم كتابه باسم إعلام الموقعين عن رب العالمين تمييزاً عن الموقعين عن السلطان والعاملين باسمه .

ونستطيع القول مع المؤرخ عبد العزيز الدوري : إن تطور المجتمع الإسلامي أظهر فئة جديدة ازداد أثرها في الرأي العام ، وهم الفقهاء والمحدثون والمفسرون ، هؤلاء مثلوا قوة جديدة كان دورها يتسع ويقوى ، وقد وجدت الثورات سنداً أدبيا في هذه الفئات ، حيث لقي رجل العلم تشجيع جماهير الأمة وتحويلها للمراكز العلمية التي كانت مفتوحة للجميع .

نقد وتقييم

يقول ابن العربي الفقيه الأندلسي المالكي : كان الأمراء قبل هذا اليوم وفي صدر الإسلام هم العلماء ، والرعية هم الجند ، فاطرد النظام ، وكان العوام القواد فريقاً والأمراء فريقاً آخر ، ثم بدل الله الأمر بحكمته البالغة وقضائه السابق ،فصار العلماء فريقاً والأمراء آخر ، وصارت الرعية صنفاً ، وصار الجند آخر فتعارضت الأمور [1].

ينطوي هذا النص على ملاحظة ذكية تعبر أبلغ تعبير عن جوهر التحول الذي حصل ببنية الدولة والمجتمع في الإسلام ، وذلك بالانتقال من الخلافة إلى الملك .

[1] ذكره أبو عبد الله بن الأزرق ، بدائع السلك في طبائع الملك ، تحقيق وتعليق على سامي التشار 2ج سلسلة كتب التراث ، بغداد منشورات وزارة الإعلام 977 ج1 ص 391

وإذا نحن أردنا أن نعبر عن مضمون هذا التحول بتوظيف المصطلح السياسي السوسيولوجي المعاصر قلنا : أنه انتقال من دولة بدون مجال سياسي إلى دولة انبثق فيها مجال خاص تمارس فيه السياسة كسياسة [1].

لقد كان الأمراء القادة العسكريون رجال دين ، والجند كانوا هم الرعية لأن الجندي لم يكن يقاتل بوصفه فرداً في فرقة عسكرية ، تنتمي إلى جيش يتميز بلباسه ونظام حياته من المدنيين ، بل كان الجندي فرداً في قبيلة مجندة ككل ، كانت مجتمعاً مدنياً يقوم على الفرد.

كان الدين يؤسس السياسة ويحكمها ، وكانت السياسة تطبيقاً للدين وخادمة له .

أجل كانت دولة الخلفاء بدون عمل سياسي لأن الخلاف لم يكن قد حدث بعد على مستوى العقيدة (الفرق) ولا على مستوى الشريعة (المذاهب الفقهية) [2].

وإلى هذه النتيجة وصل عالم الاجتماع السياسي جان وليام لايبار مميزاً السلطة السياسية المجسدة من السلطة الاجتماعية المباشرة [3].

وهذا ما حدث تماماً في حضارتنا ، فلم يكن هناك مجال سياسي بالمعنى الذي يفهم حالياً في السياسة ، والذي يخضع لهيمنة الساسة ورغباتهم ونزواتهم .

فقد توصل السلطان السياسي إلى أن يخلق هذا المجال السياسي متحكماً بكل شيء ويريد كل شيء حتى ولو اقتضى أن يمتلك الماء والهواء ، وأن يستدبر القبلة في الصلاة .

وبالمقابل كان هنالك الفقهاء العضويون (الموقعون عن رب العالمين حراس الشريعة والذائدون عنها والممتثلون لأمر الله) ، فقد استطاعوا أن ينتزعوا خصائص للمجتمع الأهلي بتمييزها عن

---

[1] د.محمد عابد الجابري : العقل السياسي الغربي ، مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت ط1 990 ص235

[2] المرجع السابق ص 235

[3] جان وليام لايبار : السلطة السياسية ، دار عويدات ، بيروت- باريس ، ترجمة الياس حنا ، ط3 ، 983 ، ص88

خصائص الظاهرة الحاكمية ، وهذه الوظائف والصلاحيات التي تدخل في اختصاص المجتمع الأهلي هي :

القضاء – الفقه – الحسبة – الأوقاف – التعليم – الجهاد الخ ...

هكذا كان الخط البياني ينوس تارة لأعلى وتارة لأسفل حسب قوة الشعب (فإذا قويت عوامل الصعود انخفضت عوامل الهبوط) والعكس ، وكان أبداً السلطان – إلا من عصم ربي – يقوي ويدعم شعرة التقييد لتتحول إلى كبل من حديد .

والخط البياني للأخلاق لم يكن منعزلاً عن توترات المجتمع ، فقد كان شديد الانفعال بانفعالات المجتمع صعوداً وهبوطاً يتعاظم ويتعملق بتعملق إرادة الشعب وحضارتها وثقلها وإصرارها .

ولنذكر القارئ بما سبق لنا قوله بأن الفرد العادي في القرآن هو المستخلف لعمارة الأرض ، وليس الخليفة السلطان وإن كافة أحكام القرآن تتجه إلى الخليفة في الأرض الموقع عن رب العالمين والحارس للشريعة .

كلمة أخيرة نقولها في هذه الظروف الراهنة التعسة : هل ماتت أمتنا ؟؟

لا شك أن أخلاق الطاعة (أخلاق ازدشير) انتصرت انتصاراً كبيراً على أخلاق المروءة أي انتصر الحاكم باسم الله – والفضل النهائي للاصطفاء الأمريكي - (المتعالي بالسياسة) على المستخلف الفعلي عن الله (الفرد العادي العربي) ، ولم نعد نجد أو نسمع النخوة العربية والشهامة العربية والمروءة العربية ، كما كنا نسمعها على لسان عنترة والمعتصم وخالد بن الوليد وفتى الفتيان علي بن أبي طالب ، وبالتالي لم يعد نسمع إلاّ صوت ازدشير العرب (في هذا اليوم الذي اكتب فيها هذه الصفحة توقع الاتفاقية الاقتصادية بين مصر وإسرائيل والتي وصفت بأنها كامب ديفيد الثانية)

ومع كل هذا فإنني اذكر بما قاله المرحوم الدكتور شاكر مصطفى بأن أمتي تضعف لكنها لا تموت .

ما الدليل على قولتي هذه ؟؟

قوافل الاستشهاد في فلسطين وبغداد ، ولعمري العظمة (الشهادة) لا تنطلق إلا من التعملق لا من الفراغ (خصائص الأمة) ، وبالتالي فأنا على ثقة ويقين من انطلاق جحافل المروءة من مكامنها .

الفرع الثاني

أخلاق السعادة [1]

ما هو شأن حضارتنا من التراث اليوناني خاصة الجذر الأخلاقي ؟؟

إن موضوع دراستنا هذه تتركز على بنيات المنظومة العامة التي تشكل هدفنا الأخلاقي ، ثم إظهار الثقافة الفرعية في هذا النظام .

وفي الحقيقة إن الحضارة تقوى على التمثل وفرز عصارتها الهاضمة في حال القوة والعكس .

وهذا هو مغزى انتقال الثقافة اليونانية في العصر الوسيط إلى حضارتنا دون اختراقها ، وفي الوقت نفسه مغزى أن الخليفة المأمون كان يمنح المترجم وزن كتابه ذهباً .

والسؤال العريض ، هل استطاعت الثقافة اليونانية أن تفتح ثغرة بسيطة في ثقافة اللباب العربية الإسلامية ... بعنفوانها وعلو شكيمتها واعتدادها بنفسها ، ومن ثم تقترب من الضمير العام للأخلاقية العربية الإسلامية ؟؟

[1] هذا الجهاز المفاهيمي للدكتور الجابري انظر كتابه السابق الذكر ص257 وانظر أحمد بن شاكر يوسف : الأصول اليونانية – السالف الذكر ص 4

على هذا سيكون اهتمامنا بالرد التفصيلي على الخطاب الأخلاقي اليوناني ، ثم نقفي ذلك بتتبع تفصيلاته وجزئياته ، ونقارن ذلك بما توصلنا إليه في دراسة النظرية العامة لأخلاق العربية الإسلامية ، وخاصة فرعها الشعبي بما في ذلك روحها العامة ، وأقاصيصها ونظرتها إلى الوجود وأريجها الروحي وزفيرها المقموع (أخلاق الطاعة) وقيمها ورموزها وعاداتها وتقاليدها وغايتها ومنتهى أمرها .

لنعد إلى سؤالنا الأساسي ، وهو ما هي الملامح العامة لأخلاق السعادة ، وخاصة عند أفلاطون وأرسطو ؟؟

هذا ونشير إلى نقطة أساسية هي أنه لم يبدأ التعامل مع الفيلسوفين السالفين إلا بشخص الفيلسوف (ابن رشد) ، وقبل ذلك ، فقد كان الغالب هو المزج بين أفكار الرجلين[1] مما أتاح المجال للمزيد من أعمال التلفيق والاقتباس ، وليس لعملية الإحياء والانبثاق .

لقد لفت الدكتور الجابري انتباهنا إلى نقطة أساسية ، هي الإهمال الشديد لفكر الطبيب جاليوس في الطب الأخلاقي ، مع أنه كان أمة في الطب ، واستطاع أن يضع أساس فيزيولوجيا الأخلاق [2].

وتتركز فكرة جالينوس في طب الأخلاق بإرجاع كافة أمراض الجسد إلى الاختلال في توازن الأخلاط ، حيث نظر إلى الشفاء بأنه إعادة التوازن المفقود بواسطة الاستفراغ والقيء والإسهال والفصد والنزيف[3] .

هل نستطيع القول إن ذلك أساس النظرية الإسلامية في الطب التي أخذت بالتعاظم والتعمق والنمو حالياً ، وفي تصدي أطباء إسلاميين كثر في إبراز هذه النظرية وشرحها (نقصد بذلك الاعتدال وعدم الإفراط والتفريط ، ثم الحجامة والفصد الخ...)

---

[1] د.الجابري : العقل الأخلاقي العربي ص 279

[2] المرجع السابق ص 280

[3] المرجع السابق ص 280

وهنالك نقطة أساسية وهي تأثر الفيلسوف الكندي برسالة جالينوس الموسومة بعنوان (صرف الاغتمام) ، مع التنويه بأن رسالة جالينوس السالفة الذكر لا تزال مفقودة ، ومن جهة أخرى فقد يكون مرد هذا التشابه مجرد تداعي الأفكار في ذهن الرجلين ، وليس غريباً أن تكون ثقافة الكندي وروحه الإسلامية هي التي أملت أفكاره .

فمثلاً لم لا نقول أن طريقة طرد الحزن عند الكندي تشبه الطريقة التي كان الرسول ﷺ يلجأ إليها في صرف الغضب : إذا كان الرجل الغضبان قائماً فليجلس وإذا كان جالساً فليستلق أو يتوضأ الخ ...

وقوله ﷺ : في صرف الحزن أن ينظر الإنسان إلى من دونه لا إلى من فوقه .

زد على ذلك ففي نهاية تحليله لكتاب تهذيب الأخلاق ، لثابت بن قره أتضح للدكتور الجابري أن هذا الكتاب استمرار للخط نفسه الذي سار عليه الرازي في كتابه الطب الروحاني (توفي الرازي سنة 320هـ وثابت بن قره سنة 363هـ) ، وأضاف بأن إطلاعه عليه هو الذي مكننا من إدراك التوافق الروحاني ووضعهما في موقفهما الصحيح في تاريخ الفكر الأخلاقي العربي ، وبالتالي اكتشاف هذه النزعة الطبية العلمية في الأخلاق بالنسبة لتراثنا [1] .

وأمامنا شهادة ثمينة لواحد من المفكرين الكبار في وطننا العربي ، فهي تؤكد تلك النزعة العقلية الواقعية التجريبية البرهانية العلمية التي سادت حضارتنا في التفكير والبحث .

بيد أن الضجة الصاخبة هي التي أثيرت حول كتاب تهذيب الأخلاق ، فقد ظهر للكتاب حتى سنة 2000م اثنتان وعشرون طبعة واحدة تنسب هذا الكتاب إلى هذا المؤلف أو ذاك حتى أنه بلغ الحد ببعضها أن أعلن الحرب القبلية .

[1] د.الجابري : العقل الأخلاقي العربي ص 314

ولقد اطلعنا الدكتور الجابري على تلك الحرب الصليبية لينتهي إلى القول بأن الكتاب للعالم الرباني الفيزيائي العربي الكبير ابن الهيثم لما يتسم به من نزعة طبية في الأخلاق هي استمرار لما عرفناه عن الكندي والرازي وابن سنان [1]

هذا ونشير إلى رسالة ابن حزم الاندلسي (متوفى سنة 456هـ) الموسومة بعنوان مداواة النفوس وتهذيب الأخلاق من الرزائل .

ويؤكد الدكتور الجابري إلى أن هذه الرسالة تنتمي إلى (النزعة الطبية) وتقع داخل نطاق أخلاق السعادة أو تنمي إلى الموروث اليوناني وإلى جالينوس بالتحديد [2]

ولا ننسى أن نشير إلى مختصر ابن رشد لجمهورية أفلاطون ، ولعل أهم ما يتميز به هذا المختصر ما يلي : [3]

1 – لقد تعامل مع جمهورية أفلاطون ولأول مرة بعيدا عن أية بطانة ميتافيزيقية ، وبعيداً عن منهج المقايسات وسوق الأدب الذي يقتطف عبارة من هنا وأخرى من هناك .

2- بقي ابن رشد مخلصاً لروح النص وطابعه التحليلي النقدي .

3- لأول مرة في تاريخ الفكر الفلسفي والسياسي والأخلاقي والاجتماعي في الثقافة العربية تواجه السياسة بخطاب سياسي صريح يتم فيه نقد الاستبداد بمفاهيم مباشرة قوية وجريئة متحررة من أخلاق أزدشير والقيم الكسروية (أخلاق الطاعة) ، ومن النزعة الصوفية على الأفق الميتافيزيقي والعقل الاجتماعي .

ويمكن القول إن الثقافة العربية في العصر العباسي الأول كانت مسرحاً للمنافسة والمفاخرة بين ثقافات عدة ، ولم يدخل النصف الثاني من القرن الثالث حتى أخذت المنافسة بين الثقافات

[1] د.الجابري : المرجع السابق ص339

[2] د.الجابري : المرجع السابق ص340

[3] د.الجابري : المرجع السابق ص340

تتحرر من الطابع الشعوبي لتتحول إلى مفاخرات ثقافية تركزت بين أنصار الموروث اليوناني (النصوص المنحولة لأرسطو التي تنتمي إلى الموروث الفارسي) .

وبدخول القرن الرابع اتخذت المنافسة والمفاخرة مجرى آخر . فعند غياب الطريق العربي (العرب مقابل العجم) لتحل محله الطريق العربي والإسلامي .

والموروث الذي كان مستهدفاً بصورة علنية من الشعوبية . هو ما أطلق عليه اسم الموروث العربي الخالص : الموروث الجاهلي وامتداداته الأدبية إلى العصر العباسي .

وكان لا بد أن ينتهي الصراع مع هذا الموروث بعد أن امتصته الثقافة الإسلامية ضمن علومها المساعدة علوم اللغة والأدب ، وأيضا بعد أن خفت حدة النزاع مع الشعوبية ، وانتقلت المفاخرة لتتركز بين الثقافتين الكبيرتين الفارسية واليونانية ، وكان لا بد أن تتسع هذه الدائرة لتشمل الإسلام ، حيث أصبحت موروثاً ثقافياً يضاهي الموروث الفارسي واليوناني [1].

ويخصص الدكتور الجابري في كتابه العقل الأخلاقي العربي فصلاً يسميه مقايسات من السعادة والاستبداد يعرض لهذه النزعة في التفكير ويصنف الكتب على أساس الأخذ من كل علم بطرف (سوق الأدب) .

ويختار لنا على صعيد الأخلاق علمين لهذا الاتجاه هما أبو الحسن بن أبي يوسف العامري النيسابوري (متوفى سنة 381هـ) ، وأبو علي مسكويه ، ومن ممثلي هذا الاتجاه الجاحظ وابن عبد ربه وابن قتيبة وغيرهم .

وظاهرة الاقتباس هذه تقدم للقارئ مأدبة فيها من كل ألوان الأدب ، والسوق التي تشكلها هذه المؤلفات هي فعلاً سوق القيم [2]

[1] د.الجابري : المرجع السابق ص395

[2] د.الجابري : المرجع السابق ص397

وتأكيداً لمنهج المقاسات نرى العامري في كتابه السعادة والإسعاد يأخذ عن أرسطو ، ثم عن أفلاطون إضافة إلى المرجعية العربية الإسلامية ، ثم يخرج كتابه من هذا الخليط العجيب [1] والأمر نفسه بالنسبة لأبي علي أحمد بن مسكويه (متوفى في سنة 421هـ) ، فهو يمزج في كتابه تهذيب الأخلاق بين آراء أرسطو وأفلاطون و جالينوس ، ومن المصادر العربية يقتبس من الكندي ومن علي بن أبي طالب ، ومن خطاب لأبي بكر (ومن آيات من الذكر الحكيم ، ومن الأحاديث النبوية[2]) ، مع العلم أن الروح الكسروية لم تكن غائبة .

ونخلص من ذلك إلى أن نظام القيم في الموروث اليوناني هو السعادة التي تمثل قيمة مركزية شاملة تقود إلى الكمال الانساني .

والجمع بين الموروث الفارسي واليوناني ، السعادة والاستبداد هو جمع بين نقطتين ، ونجد ذلك جلياً في مدينة الفارابي التي تلغي السعادة ، إما بتأجيلها إلى الحياة الآخرة ، أو بربطها بهذه الدنيا بنموذج أزدشير [3]

هل ينطبق ذلك على كل مفكري المقابسات ؟؟

لنستمع إلى آخرهم أبي حيان التوحيدي يقول المذكور : السلطان في تدبير الرعية كالشمس في تفصيل الأزمان والخير كالرياح في التلقيح والعلماء كالنبت والحيوان في فضل الأموال [4]

والحقيقة أن التوفيق بين التراث الإسلامي والتراث اليوناني لم يكن مقصوراً على الأخذ من نتاج أفلاطون وأرسطو ، كما فعل الفارابي ، بل اتخذ سبلاً أخرى هي التوفيق بين مقتبسات من هذين الفيلسوفين ، وبين مقتبسات من جالينوس ، مما فسح المجال لإدراج عناصر أخرى من

---

[1] د.الجابري : المرجع السابق ص401

[2] د.الجابري : المرجع السابق ص407

[3] د.الجابري : المرجع السابق ص420

[4] أبو حيان التوحيدي : المقايسات تحقيق علي شلق ، دار الهدى للطباعة والنشر ، بيروت 986 ص169

الموروثين الفارسي والعربي والإسلامي في هذا الكشكول ، والنتيجة هي أن أخلاق السعادة تحولت في الثقافة العربية إلى سوق للقيم ، كما هو الحال في كتابي العامري ومسكويه.

وفي الحقيقة لقد غاب التنبيه على سبيل السعادة للفارابي ، وقد اختصر فيه كتاب أرسطو بأسلوب بسيط وواضح ، وغاب الطب الروحاني للرازي ،حيث سار فيه بأمانة علمية ، وغاب تهذيب الأخلاق لابن الهيثم بوصفه في غير مكانه ، وبعيداً عن سياقه ، فبقي شريداً يحتاج إلى ربطه بأصوله وإطاره .

- وغاب الضروري في السياسة : مختصر السياسة لأفلاطون لأبي الوليد بن رشد ، فغاب بغيابه نقض السياسة في ثقافتنا ، فضلاً عن غياب أفلاطون الحقيقي في تراثنا لأن المراجع فيه كانت منحولة تنتمي إلى الأفلاطونية المحدثة .

لقد تداخلت أخلاق السعادة مع أخلاق الفناء منذ قبل الإسلام ، ومنه ورثت الثقافة العربية ذلك وعمقته ووطنته ، ومن جهة أخرى حصل التداخل بين الموروث الإسلامي من جهة والموروث اليوناني والموروث الصوفي ، وكانت هناك محاولات لأسلمة الأخلاق اليونانية من جهة أخرى .

لقد نظرت النزعة الطبية (الرازي – ابن سنان – ابن الهيثم – رسالة الكندي – ابن حزم) إلى السعادة نظرة الطبيب إلى الصحة ، وهكذا لما كانت سعادة الإنسان من الناحية الجسمية تكمن في الصحة فسعادته النفسية والاجتماعية تكمن في الصحة النفسية والاجتماعية .

هذا التصور للسعادة يكرس نوعاً من الآلية والحيوية ، ويجعل السعادة في المتناول على هذه الأرض ، أما السعادة خارج هذه الحياة ، فليس للطب ولا للعلم شأن في ذلك .

أما النزعة الفلسفية فقد تعاملت مع السعادة على أنها سعادة الفيلسوف (الفارابي – ابن باجه) جاعلة ما ينتهي إليه أرسطو في كتابه الأخلاق بداية لها :

كانت السعادة الخاصة بالفيلسوف آخر ما تناوله أرسطو ، فقد حلل السعادة كما يمكن أن ينالها جميع الناس ، ثم عرج على السعادة الخاصة بالفيلسوف سريعا ليعود إلى الناس ، ويطرح قضية النظام الاجتماعي والسياسي والقانوني الذي تسهر على سعادتهم .

أما الفارابي فقد اهتم بتحصيل السعادة الخاصة بالفيلسوف لأنه هو الذي يكون أولاً وينشئ المدينة الفاضلة مما يضع الفارابي أمام القيم الكسروية .

والخلاصة : إننا – في العصر الوسيط وخصوصا على الصعيد الفلسفي والفكري – تلقفنا الكثير من الثقافة اليونانية إرضاء للخطاب السياسي دون أن نتوجه بها إلى الجماهير (التوجه إلى الجماهير كان من الخطاب الفقهي) ، ثم اعتنقنا أيضاً – وبكثرة – التراث الفارسي (أخلاق الطاعة) لنجعل من ذلك مقوم حياتنا السياسية .

هل كان لنا سقوط آخر على مستوى الثقافة ؟؟

لعل خطاب المفكر العربي ابن نبي تمهيد وإرهاص للرد على هذا السؤال يقول المذكور : إن ثقافة تمنح الأولوية لذوق الجمال تغذي حضارة تنتهي إلى فضيحة حمراء يقود جنونها رجل مثل نيرون و امرأة مثل مسالين ، كما أن ثقافة تمنح الأولوية للمبدأ الأخلاقي تكون حضارة مآلها التحجر والجمود ، وتنتهي إلى فضيحة صامتة سوداء تتيه في مجاهل تصوف متقهقر يقود جنونه مشايخ الصوفية [1].

نقدنا وتقييمنا لأخلاق السعادة

فتح لنا ملف أخلاق السعادة الطيف الفكري في الحضارة العربية الإسلامية بألوانه وتضاريسه المختلفة المعقدة ، بل المتناقضة والمتداخلة والمختلفة أحياناً ، والمثال الصارخ على ذلك يتمثل في خطاب المقابسات الخليط من الألوان التي غايتها الإمتاع والمؤانسة ليس إلا .

[1] مالك بن نبي : شروط النهضة ، ص 858

ولقد عرضنا وأشرنا مراراً إلى التداخل بين خطاب السعادة وخطاب الفناء كما عرضنا لخطاب السعادة عند الفيلسوف (الفارابي أنموذجاً) .

بيد أن الذي لفت الانتباه هنا الخط الفكري العربي الإسلامي المعبر عن أخلاقيات الإسلام متمثلاً في خط ابن الهيثم والكندي وابن حزم وغيرهم

والذي حلل لنا هذا الخطاب وأبان خصائصه الفكرية وأسسه العلمية هو الدكتور حسام محي الدين الألوسي [1].

لقد كشف لنا الدكتور الألوسي عن المناهج العلمية التي عرفها العرب المسلمون لينتهي بالبرهنة المختلفة على أن العقل الإسلامي العربي هو عقل علمي عقلي نقدي استقصائي تجريبي .

لقد ابتدأ الدكتور الألوسي باستعراض رأي رودنسون القائل بأنه لا يوجد حديث عن إيمان بأن عفواً بإشراق حدثي لا عقل فيه ، ومن ثم فالعقلانية القرآنية جعلته كالصخر ، ويتابع الدكتور الألوسي عرض أقوال رودنسون بأن العقل العربي الجاهلي افتقر إلى الأساطير والطقوس ولا يؤمن إلا بما هو واقعي ومحسوس .وذو آثار ملموسة معقولة .

ويخلص رودونسون للقول بأن القرآن الكريم بحث في العلم الديني بالإضافة إلى العلم البشري المبني على الفطرة ، وإن تفضيل آدم على الملائكة كان وراءه العلم قال تعالى : (وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا)(البقرة: من الآية31)

يقول الدكتور الألوسي : إذا تتبعنا فلاسفتنا نجدهم يعدون مبتدأ المعرفة من المحسوس ومن الجزئي ، وهم جميعا اسميون يعدون الكلي مفهوماً يجرده العقل بواسطة اللغة عن الجزئيات ،

[1] مقاله الموسوم بعنوان : الفكر في التراث العربي الحضاري منشور في المشروع الحضاري العربي بين التراث والحضارة مؤسسة عبد الحميد شومان ، عمان ص 165

كما يعدون التجربة أصل المقولات [1] ، وأن غالبية المتكلمين رواقيون يرون أن الماهية ليست بشيء على الإطلاق[2]

فابن تيمية يعتقد أن العقل يدرك الكليات عن طرق التعامل مع الحسيات ، وابن رشد يؤكد أننا مضطرون لأن نحس أولاً .

ويعرض الدكتور الألوسي للمنهج عند ابن خلدون بأنه استقرائي واقعي يقوم على رصد الجزئيات من أجل الوصول إلى الكلي ، والأمر نفسه بالنسبة لمنهج الأصوليين [3].

وهذا المنهج الأخير نجده مطبقاً عند جابر بن حيان وابن الهيثم في الكيمياء والبصريات[4] ، وهذا المنهج نلمسه مبكراً قبل ابن خلدون بقرنين – عند ابن صاعد [5].

وعلى صعيد الطب والفلك نجد هذا المنهج التجريبي عند أبي معشر البلخي (ت 995هـ) وابن يونس المصري (ت 1008م) [6]

وعرف العرب المنهج الاستنباطي وهاجموه ،كما عرفوا المنهج الاستدلالي (منهج مصطلح الحديث) ، وطرق تحقيق الحديث رواية ودراية ، وهو منهج البحث التاريخي الذي نجده عند فلنج ولانجلو (النقد الداخلي والخارجي) [7].

والعقل العربي عموماً عقل حواري نقدي تمحيصي ، وقد رفض عقل أرسطو على صعيد الفقه وعلم الكلام [8].

---

[1] المرجع السابق ص 348

[2] المرجع السابق ص349

[3] المرجع السابق ص358وص355

[4] المرجع السابق ص364

[5] المرجع السابق ص 355

[6] المرجع السابق ص366

[7] المرجع السابق ص367

[8] المرجع السابق ص 370

ومن جهة أخرى فقد اتضح لنا أن الخطاب السياسي – وهو ما يقارب الدور الذي يلعبه الآن – لعب دوراً هاماً في تعويم الأمة وإفراغها من حيويتها ، وذلك بتكريسه الطاعة وما يتفرع عن هذه المسلبة من ترسانة النكوص والذل والضعف .

ويمكن القول إن الخطاب الذي توجه إلى الجماهير ونال ثقتهم واحترامهم وتحريك شؤونهم وشجونهم وزفيرهم المقموع ، هو خطاب الفقيه الموقع عن رب العالمين بتعبير ابن القيم ، لكن لماذا وكيف ؟؟

لو أجرينا مقارنة بسيطة بين سعادة الفيسلوف عند الفارابي والسعادة في عقل القرآن لتبين لنا الهوة بين رطانة الفيلسوف عموماً والفارابي خصوصاً في لغة الضمير الجمعي العربي الإسلامي الذي رأيناه يصيخ السمع إلا لهدهدات القرآن .

فالقرآن يتوجه إلى المؤمن العادي البسيط الذي إذا حضر لم يعرف وإذا غاب لم يتفقد لكن قلبه مصباح الدجى (صدق رسول الله ﷺ) .

وعودة إلى النقطة التي نكررها مراراً ، وهي ما تتعلق بنظرية الثقافة ، وضرورة وجود ثقافة لباب تضطلع بدور القيادة والدفاع عن الأمة تساعدها وتعضدها أنساق ثقافية أخرى ، فهذا التحليل ينطبق على النظرية العامة للثقافة بما في ذلك العربية الإسلامية .

على ضوء ذلك نتوجه إلى أخلاق السعادة بالسؤال التالي : هل دافعت هذه الأخلاق عن حضارتنا وأين وكيف ؟؟

ما هو موقفها من الدار الآخرة ؟؟ هل أقامت التوازنات المختلفة التي حققتها الأخلاق القرآنية : الدنيا والآخرة – المادة والروح – الأمة والفرد .

الجواب كلا .. وبالتالي فلا يمكننا الاطمئنان لأخلاق السعادة بالصورة التي طرحها أفلاطون وأرسطو وغيرهم .

ولعلنا نقول ما قاله جمال الدين الأفغاني : الدين قوام الأمم ، وبه فلاحها وفيه سعادتها وعليه مدارها [1]

ثم لنا أن نتساءل : ما حدود السعادة الدهرية ودرجتها ونطاقها ؟؟.. كل هذا يبدو قاحلاً في السعادة الدهرية إذا قورن بالأخلاق الإسلامية كما ظهر لنا من صرامتها ودقتها

يقول الثائر المفكر جمال الدين الأفغاني : الدين هو الذي أكسب عقول البشر ونفوسهم عقائد وخصائص ، كل منها ركن لوجود الأمم وعماد لبناء هيئتها الاجتماعية وأساس قيم لمدينتها، وفي كل سائق يحث الشعوب والقبائل على التقدم لغايات الكمال والرقي إلى ذرى السعادة ، وفي كل واحدة وازع قوي يباعد النفوس عن الشر ويزعها عن مقارفة الفساد ويبعدها عن مقاربة ما يبيدها ويبددها .

هذه العقائد والخصال تكون عند الأفغاني (قصر السعادة الإنسانية المسدس الشكل) [2]

ونعتقد أن القضية حالياً تأخذ منحى جديداً في علاقة حضارتنا بالغرب ، وخاصة ما يتعلق بتحديد مضمون السعادة وكنهها ونطاقها ، ولا يزال التغريبيون العرب المسلمون يلحون على اقتباس النموذج الغربي الذي لا يختلف عن المدلول اليوناني في العصر الوسيط .

وحضارتنا لا محيص لها من أن تشق طريقها النابع من خصائصها ومقوماتها .

فالدين هو الذي يسمح ببناء نظام اجتماعي متماسك متجذر يسعى لخير المجموع وسعادته داخل إطار التجمع البشري ، أما التمدن المرادف (للمكتبات العلمية) التي لا يترتب عليها إلا الفائدة والكسب والربح فليس هو التمدن الحقيقي [3]

---

[1] جمال الدين الأفغاني : الرد على الدهريين ، الأعمال الكاملة ص13

[2] جمال الدين الأفغاني المرجع السابق ص154

[3] د.فهمي جدعان : أسس التقدم ص 166

إن الإنسان اليوم هو أحط درجة من إنسان الجاهلية ، حتى ومن الحيوان الناهق ، إذ قد يكون للإنسان في دوره الأول في حروبه الوحشية وعوامل الجاهلية ، معذرة في طلب الحاجيات أما اليوم فان المدمرات المهلكة تستعمل ليس للحاجيات ، بل لأدنى صور الكماليات [1]

الإسلام –كما قال المفكر محمد عبده – فاعلية وجدانية لا تخضع لعملية البرهان المنطقي المنظم ، ولا من نافذة الوجدان المطلة على سر المحيط من كل جانب ، والعقيدة الدينية هي التي تجعل العيون تبكي والزفرات تصعد والقلوب تخشع [2]

والخلاصة لا بد من الرجوع إلى الأصالة العربية الإسلامية ، ونبذ فكرة التغريب التي تدعو إلى الخروج من الدائرة العربية والإسلامية خروجاً كاملاً أو شبه كامل ، والتبني الكامل للقيم الأخلاقية والاجتماعية والحضارية والسياسية للمدنية الغربية ، ومن الدعوة صراحة للارتباط بالغرب والتبعية له .

ومرد ذلك هزيمة نفسية ثقافية ولدتها الهزيمة السياسية ، وإن هؤلاء المفكرين المسلمين الذين سقطوا سقوطاً كاملاً في أحضان المنظومة الليبرالية –التغريبية العلمانية يفتقرون إلى قوة النفوس ونفاذ في الرؤية وبعد في النظر وحس نقدي على درجة من التوازن [3]

إن ضعف حضارتنا هو –ولا شك- الذي ولد ظاهرة التغريب ، لكن هل كان هنالك كسور في عظام هذه الأمة ،وشقوق وفتوق وشروخ أخرى في النفس ، وما هي هاتيك الشقوق والفتوق ؟؟

الفرع الثالث

[1] جمال الدين الأفغاني : خاطرات الحرب والسلام ص 230 (الأعمال الكاملة) ص131

[2] محمد عبده : رسالة التوحيد ، ط4 دار المعارف بحلب 971ص147

[3] د.فهمي جدعان : أسس التقدم ، المرجع السابق ص 323و324و325

منظومة أخلاق التصوف

أخلاق فرق التصوف متمسكة تارة بأخلاق الفناء ، وتارة أخرى بفناء الأخلاق إلى إفناء المذموم من الأخلاق بقصد الحصول على حال الفناء القائمة بدورها على فناء الصفات [1]

ففكرة الفناء هي أبعد ما تكون عن صنع الحياة وبهجتها وأريجها وفعاليتها ، كما هو واضح من الأخلاق القرآنية القائمة على إيناع الحياة وعمران الأرض .

وفضلاً عن ذلك ، فهذه الفكرة تتعارض مع فكرة التوحيد القرآنية القائمة على وحدانية الله وتنزيهه عن أية مماثلة (ليس كمثله شيء) ، وهناك مسافة لا نهائية بين الله تعالى وبين الإنسان.

والعرب قبل الإسلام جعلوا المسافة بعيدة بينهم وبين الله وغير قابلة لأي اتصال حتى وعلى مستوى الدعاء والعبادة ، إلا بتوسط الأصنام ..

وإذا كان من الطبيعي أن يلاحظ المدقق ظهور تيارات فكرية وأخلاقية تتخذ موقفاً سلبياً من الحياة في الأوقات التي تدخل فيها هذه الحضارة مرحلة الأفول ، فليس طبيعياً أن تظهر هذه المواقف السلبية في حضارة تعيش ريعان شبابها .

ولقد عرضنا مراراً للقيم الايجابية في حضارتنا من ذلك مثلاً تلك الفتوحات الحية البازغة التي لا يحتاج إلى تدليل والتي تتفق مع قاعدة الأساس التي بنينا عليها هذا الكتاب ، وخاصة قاعدة تصحيح الانحراف (الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر) ، ثم قاعدة الاستخلاف وعمران الأرض ، وهذا ما يجعلنا نؤكد أن أخلاق الفناء انحراف عن البناء الإسلامي لحضارتنا الذي يعني الإقبال لا الأدبار الإيجاب لا السلب ، الكينونة لا الفناء ..

وفي الحقيقة ، فالقطبية – التي هي غاية الغايات عند أخلاق الفناء ، والخلافة العظمى عن الحق مطلقاً في جميع الوجود جملة وتفصيلاً – لم تكن نتيجة لطبائع الأشياء والعناصر المركوزة في الثقافة العربية ، بل تحمل المعنى الذي كان سائداً عند الفرس قبل الإسلام [1]

[1] د.الجابري : العقل الأخلاقي العربي ، ص427

ونحن نلمح ابراهيم حبيب العجمي القطب الغوث في الفكر الصوفي الفارسي قبل شيوع هذا المفهوم في الفكر العربي بوقت طويل [2]

ولا ننسى أن نشير إلى صدمة الضمير الديني العربي الإسلامي أمام أحداث جسام (حرب الجمل –حرب صفين – حروب الخوارج – ضرب الكعبة – قتل الحسين) ، مما أدى إلى إحداث هزات ورضات في الضمير الديني عبرت عن نفسها في الجهاد والزهد الذي هو الأرض والقاعدة الصلبة للتصوف ، وقد اندمج الزهد في التشيع والتشيع في الزهد ، ولكن المذهب أخذ طريقاً مستقلة عندما فشل التشيع سياسياً فلم يجد الزهد سوى الموروث الصوفي الفارسي [3].

ويجمع المؤرخون على أن الحسن البصري كان مؤسس التصوف السني المعتمد على الموروث الإسلامي الخالص .

وما دمنا في أخلاق الفناء فلنتذكر أنه في قمة مدارج السالكين لا يبقى بعدها إلا أن يرفع عن السالك هذا الوصف (وصف المريد السالك) ، فيتحرر من مشقة المجاهدة ، ويخرج عن قيد المقامات وتغبر الأحوال ، فيصل إلى إدراك الطلب ، ويرى جميع المرئيات باليقين ويسمع جميع المسموعات بالأذن [4].

وفي هذا المقام الذي لا مقام فوقه تنتهي مجاهدات السالكين .

إن أخلاق الفناء تفنى هي الأخرى بإلغاء نفسها بنفسها – لتفسح المجال لحرية جديدة هي حرية فناء الأخلاق [5]

ولكن لماذا وكيف ؟؟

---

[1] د.الجابري : المرجع السابق ، ص436

[2] المرجع السابق ، ص436

[3] المرجع السابق ص 346

[4] د.الجابري : المرجع السابق ، ص482

[5] د.الجابري : المرجع السابق ، ص482

- ينطلق المريد من الشعور بالذنب لينتهي إلى استثنائه من الذنب
- الخوف من العذاب عذاب الآخرة لينتهي إلى الاستثناء من ذلك .
- من الفردية التي ترتاح بالخلوة إلى الطريقة التي تحيا حياة القطيع .
- الثورة على رسوم الفقراء إلى الانغلاق في رسوم الطريقة
- ينطلق المتصوف من العبودية لله لينتهي إلى الفناء في الله ، فيتحرر من العبودية والعبادة.
- الشكوى من استبداد الحكام ليتحول إلى ممارس قوي للسلطة [1]

نقدنا وتقويمنا لأخلاق التصوف

المسألة العويصة في الفكر القانوني ، هي فكرة الانعدام ، ورجال القانون يضعون الأثقال والأبهاظ على تقريرها .

ويختلف الأمر عندما يكون خروجاً فاضحاً Flagrant أو جسيماً grossier على قاعدة دستورية على اعتبارها قاعدة الأساس .

هل يمكن أن نمنطق العقيدة الدينية بهذا التصويب ؟؟

في الإسلام ، الله تعالى (إذا صح التعبير) هو قاعدة الأساس ، علة العلل ، واجب الوجوب ، نجد هذه الرؤية في الكثير من الآيات القرآنية قال تعالى : (إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً بَعِيداً) (النساء:116)

أجل كل مقاربة أو مقارنة أوتشبيه بالله مرفوض في الفكر الإسلامي ، والله يختلف عن الإنسان في الطبيعة والماهية والجوهر ، قال تعالى : (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ)(الشورى: من الآية11)

الله قريب ولكن قربه يختلف عن قربنا ، والله نور ، ولكنه نور السماوات والأرض الخ...

[1] د.الجابري : المرجع السابق ، ص487

إذن ، فأن يأتي التصوف ويفتح ثغرة مهما كانت بسيطة ويخرق خرقاً مهما كان محدوداً ، فذلك معدوم وإذا استعرنا لغة القانون ، فقد يكون الخروج باطلاً ، لكن المساس بالأساس ، فهو معدوم ، والمعدوم معدوم لا ينتج شيئاً .

لا شك أنه قد يكون هنالك مواجد وعبادات وتحنث وعبودية ضمن إطار أركان الإسلام ، فذلك يأخذ مظهر الاجتهاد ، مظهر الاختلاف لا الخلاف ، أما أن تمس فكرة الأساس مساً ولو كان طفيفاً خفيفاً فذلك معدوم غير مقبول .

خاتمة

عرضنا لفكرة عروبة الإسلام وإسلام العروبة تلك الفكرة التي حدت أحدهم لتصنيف كتاب حول ذلك [1]، وبالتالي النظر إلى العروبة والإسلام على أنهما مفهومان متميزان إلا أنهما لا ينفصلان أو ينفكان ، وأبعد من ذلك فقد وجدنا بعضهم يزيل كل حاجز ، فيما هي بذلك بين الظاهرتين .

وحقيقة الأمر أن العروبة امتزجت بالإسلام وشربت من روحه لبن الوجود والنشأة والحياة ، بل الارتقاء والكمال ، على أن يفهم ذلك في إطار التكوين والوجود والماهية لا في إطار السياسة والايديولوجيا .

ونعتقد أن المقتل الأكبر والجرعة الزعاف التي تجرعتها العروبة في هذا العصر هي الاكسير الكاذب للسياسة (السياسة هي الشجرة الملعونة) ، قاطعة الحبل السري مع ينبوع حياتها ودفق رواها ألا وهي الحضارة العربية الإسلامية [2].

يقول مين دوبولان : الدولة حضارة بأسرها ، وقد استجمعت قواها فأفصحت عن نفسها في مؤسسة [1]

[1] كتاب الأستاذ محمد خالد عمر ، وقد سبق الإشارة إليه

[2] الرأي للدكتور عبد العزيز الدوري سبق الإشارة إليه.

فالسياسي مؤسس على الحضاري ، وليس العكس ، والسياسي ما هو إلا تقنية للحضاري .

يقول مفكر ايطالي دعني أدون أغاني الأمة ولا تهمني بعد ذلك السياسة .

فالمفكر المذكور أدرك جوهر الأمور والتطور والانطلاق ، وذلك في التأسيس الحضاري .

يقول مفكر أمريكي : مجتمعنا بما فيه من مؤسسات هو السيمفونية التاسعة لبتهوفن تدليلاً لعمق المجتمع وصلابة مؤسساته .

يقول الفقيه الكبير بوردو : الدولة الوظيفية هي التي تقوم على مؤسسات ، وكل مواطن يعمل في موقع لا يتجاوزه حتى ولو كان رئيس جمهورية .

أليس ذلك تأكيداً لقوله تعالى : (وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئاً وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ) (آل عمران:144)

فالسياسة ليست إلا إبرة مغناطيسية تتحرك بالساحة المغناطيسية التي هي الحضارة

أجل كان المقتل من التأسيس عندما أحببنا السياسة كثيراً والحضارة قليلاً ، فكان العقل المنتكس المقلوب المرتكس .

يقول الخليفة الأواه المنيب عمر بن عبد العزيز : الإسلام نهر عظيم ينبع من أرض العروبة ويندفق في أرضها ، ولكن هذا النهر العظيم يبس إذ اشتق منه معاوية بن أبي سفيان جدولاً ، ثم ما بعده جدولاً فمتى يعود رواء هذا النهر العظيم .

نعم متى تعود العافية والصفاء إلى هذا النهر العظيم .

إن النقطة الأساسية في أية نهضة هي فكرة التأسيس هي الفكرة المفتاح la notion cley ، هي معرفة النفس التي هي أساس كل معرفة ومنطلق كل معرفة (ارسطو) ، ثم معرفة مكونات النفس وعناصرها والنسب المركوزة فيهما وترتيب النتائج والآثار على ذلك .

---

[1] الأخلاق والسياسة ، ترجمة د. عادل العوا – دمشق ، دار طلاس 986، ص 301

يقول الأستاذ علي حرب : الحقيقة هي حقيقة الكائن عينه ، إنها ما تمليه الكينونة ، فكينونة الشيء هي قوته ومداه الوجودي هي قدرته على الانفتاح والتوسع [1]

لنتطلع قليلاً ما حولنا : فهل نستطيع الخروج على قانون الهوية ، وما أودعت الحياة فيها من أساس ونسب مركوزة .

قانون الهوية يقول لي أن المفتاح هو الوسيلة لفتح المغاليق ، فهل أتمكن من الفتح إلا عن طريق المفتاح .

إذا رجعنا إلى المقولة السابقة التي سبق أن اشرنا إليها مراراً ، وهي أنه في قلب كل منظومة عنصر أساس يضفي على المنظومة الاتساق والحياة والانسجام ، وهذا العنصر يسمى على مستوى الثقافة – ثقافة اللباب [2]

لنأخذ مثلاً صارخاً في نهضة أوروبا فقد بلغت أوج قوتها وعزتها عندما تم التحالف والتكامل بين مطلب الحرية ومطلب الديموقراطية ، وكان هذا التعانق أساس المشروع الحضاري العمراني لأوروبا .

والأمر كذلك نهضتنا الثالثة – في ترتيب منظومتنا القيمية ترتيباً وتنسيقاً – تحرص على أهمية كل عنصر بما في ذلك الدور والتاريخ الوطني القطري – في موقفه من المنظومة القيمية

وفي سبيل ذلك نتوجه بالملاحظات الآتية :

1) هنالك من أحب الحرية السياسية على حساب الحرية الاجتماعية ، وبالعكس فهناك من أحب الحرية الاجتماعية على حساب الحرية السياسية ، وأخيراً هناك من نرجس الذات فالحرية أولاً والديموقراطية والحرية الاجتماعية حليفاً للحرية الأم ، أما التجدد الحضاري فيبقى التفاعل مع الغير في حدود الهوية

[1] علي حرب : مقال مرسوم بعنوان : غزو ثقافي أم فتوحات مكية ، مجلة الفكر العربي ، بيروت ، عدد 74 سنة 993 ص 63 وما بعدها .

[2] عدنان أبو عمشة : ثقافتنا في مواجهة التحديات ، دمشق ألف باء الأديب ، 997 ص 24

2) أمسكنا عن استعمال مصطلح ومفهوم أصل وفرع المستعملين كثيراً في حقل التراث لا سيما لدى علمي أصول الفقه والفقه الإسلامي ، وذلك خشية أن نفهم أننا نطفف من أهمية الدور الذي تلعبه الحرية وتوأمتها الديموقراطية في ميدان الأنسنة والنهوض .

وحقيقة الأمر أن الهوية حقيقة ووصف تتميز بقدر كبير من الثبات [1]، فها هو أبو البقاء الكفوي يعرف الهوية بأنها الشيء هو هو بوصفه وجوداً منفرداً متميزاً من غيره [2]

3)- هكذا نفهم – وبالتحديد السابق - الهوية (والوحدة كمبدأ لزوم لها) بأنها حقيقة الكائن ، جوهرة ، أما مدى الكينونة وامتدادها وأثرها اللزومي ، فهي الحرية والديموقراطية.

4) - هناك أثر هام لزومي يترتب على كينونتنا هو مبدأ الأخلاق والروح

يقول المفكر العربي الكبير مالك بن نبي : لا تتم النهضة إلاّ بدخول التاريخ عنصر الروح ethos ، أما العنصر العقلي فيقتصر على جعل الحضارة تراوح مكانها ،حتى إذا سيطرت الغرائز كانت الكارثة والهاوية [3]

وعلى هذا ،ففي كثرة مشاريع النهضة التي تطرح الآن على ساحتنا الثقافية لم نعثر على من أولى الاهتمام لهذا العنصر مع أنه الملاط الذي يمسك لبنات أي مشروع ، والروح التي تسري في عظام ودم حياتنا .

5)- الإسلام الذي نقصده في هذه الدراسة هو الإسلام الحضاري لا الديني ، فالإسلام الديني يدخل في المجال الإيماني ويخص المسلمين ، أما الإسلام الحضاري فهو ملك الأمة أي ملك كل

---

[1] العلم الحديث يتوجس من الثبات المطلق ، ويدلل بالثبات النسبي

[2] د. على عقلة عرسان : الشخصية الثقافية العربية : الهوية الغزو – مجلة الفكر السياسي –دمشق –السنة 1 العدد الأول 1997 ص 53 و 54 .

[3] كتابة شروط النهضة ، ص 87

عربي ، فالمسيحي العربي هو مسلم ، وهذا ما عبر عنه المفكر أمين نخله : الإسلام إسلامان : اسلام الدين وإسلام الحضارة وكلنا مسلمون إذا كان الأمر حباً بمحمد وكلفاً بلغته [1]

وعبر عن ذلك المطران جورج خضر بقوله : هنالك حضارة واحدة هي الحضارة العربية الإسلامية ونحن جزء منها [2] .

الفهرس

الفصل الأول: نظرية الأخلاق في القرآن

البحث الأول: الإلزام

الفرع الأول: الأساس الملزم لنظرية الأخلاق في القرآن

الفرع الثاني: خصائص التكيف الأخلاقي

المطلب الأول : إمكان العمل

المطلب الثاني : الأخلاق القرآنية والتكليف

الفرع الثالث: تناقضات الإلزام

المطلب الأول : موقف كانت

المطلب الثاني : موقف الفيلسوف رو

الفرع ارابع: تقدير وتقييم

البحث الثاني: المسؤولية الخلقية

الفرع الأول: ماهية المسؤولية الخلقية

الفرع الثاني: شروط المسؤولية الأخلاقية والدينية في القرآن

المطلب الأول : شخصية المسؤولية

[1] الحوار القومي الديني : مركز دراسات الوحدة العربية بيروت 99 ص 210

[2] مجلة الناقد ، بيروت ، عدد سنة ، ص 125

المطلب الثاني: العلم بالقاعدة

المطلب الثالث: الإرادة

الفرع الثالث: الجانب الاجتماعي في المسؤولية

البحث الثالث: جزاء مخالفة القاعدة الخلقية والدينية في القرآن

الفرع الأول: مخالفة القاعدة الخلقية

الفرع الثاني: مخالفة القاعدة الدينية (الجزء الإلهي)

المطلب الأول: الجزاء الإلهي في العاجلة

البند الأول: الجزاء المادي

البند الثاني: تأييد المؤمنين

البند الثالث: الجانب العقلي والمنطقي

البند الرابع: الجانب الروحي

المطلب الثاني: الجزاء في الآخرة

البند الأول: التذوق الأولي للمصير

البند الثاني: الجنة والنار

البحث الرابع: النية

الفرع الأول: شروط التصديق بالعمل

الفرع الثاني: النية وطبيعة العمل الأخلاقي

الفرع الثالث: فضل النية على العمل

الفرع الرابع: هل تكفي النية بنفسها في تحقيق العمل الأخلاقي

البحث الخامس: الجهد

الفرع الأول: جهد انبعاث تلقائي

الفرع الثاني: جهد المدافعة

الفرع الثالث: جهد المبدع

البحث السادس: مجالات نظرية الأخلاق في الإسلام

الفرع الأول: نظرية الأخلاق الإسلامية في مجال الدولة

المطلب الأول: مسألة التأسيس

المطلب الثاني: الأصول والمبادئ المترتبة على فكرة التأسيس

الفرع الثاني: من القين الأخلاقية التي قررها الإسلام على صعيد الدولة

أولاً: العلاقة بين الرئيس والشعب

ثانياً: العلاقات الخارجية

البحث السابع: الساحات الأخلاقية في الحضارة الإسلامية

الفرع الأول: رصد بعض الأنظار الخلقية في حضارتنا

الفرع الثاني: تقويم وتقدير هذا البحث

البحث الثامن: جدلية السياسي واليني في التجربة العربية والإسلامية

الفصل الثاني: نظم القيم في حضارتنا العربية الإسلامية ومسألة الأخلاقيات فيها

البحث الأول: أخلاق المروءة

الفرع الأول: مقدمة

المطلب الأول: الناحية النفسية

المطلب الثاني: الناحية الاجتماعية

المطلب الثالث: صفاء الفطرة العربية

الفرع الثاني: ما المقصود بأخلاق المروءة وما طبيعتها ومظاهرها

المطلب الأول: الكرم

المطلب الثاني: الفتوة

المطلب الثالث: لمن الصدارة للقوة أم للمروءة

الفرع الثالث: المروءة في ظروفنا الراهنة

الفرع الرابع: إسلام العروبة وعروبة الإسلام

المطلب الأول: الموجة الإسلامية الأولى ومسألة إسلام سيدنا ابراهيم وبناء البيت

المطلب الثاني: المشاريع السياسية والتوحيدية

المطلب الثالث: الاجتماع الإسلامي في التاريخ

المطلب الرابع: الاجتماع التاريخي العربي

الفرع الخامس: تقديرنا وتقويمنا لأخلاق المروءة

البحث الثاني: الأخلاق المجلوبة (النوابت)

الفرع الأول: أخلاق الطاعة

الفرع الثاني: أخلاق السعادة – نقدنا وتقييمنا لها

الفرع الثالث: منظمة الأخلاق – التصوف– نقدنا وتقييمنا لها

الخاتمة